مصطفى نصر

ظمأ الليالي

رواية

الكتاب: ظمأ الليالي (رواية)

الكاتب: مصطفى نصر

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

نصر، مصطفى

ظمأ الليالي / مصطفى نصر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **978 -977 - 446 - 462 - 5**

أ – العنوان رقم الإيداع : **13444 / 2017**

ظمأ الليالي



إهداء

إلى الإسكندرية، مرة أخرى

(**1**)

جاء خليل إلى الإسكندرية بعد حصوله على الثانوية العامة، ليلتحق بكلية التجارة. ذلك كان منذ سنوات طويلة، فهو الآن مراقب حسابات بمستشفى رأس التين العام.

وقتها، دله أحد بلدياته في دمنهور على صاحب بيت، حول سطحه الكبير جدا إلى حجرات صغيرة، يؤجرها للطلبة الأغراب. (سكن، " بلدياته " هذا في هذا البيت أيام دراسته)

يذكر خليل رغم مرور السنين، أول يوم وصل فيه للإسكندرية. استطاع الوصول لمكان البيت بسهولة، فهو قريب جدا من محطة السكة الحديد.

وضع أشياءه القليلة لدى بقال قريب من البيت، دله " بلدياته " عليه، وأوصاه بأن يشتري منه تموينه: شايه وسكره وصابونه إلخ؛ قبل أن يترك الأشياء عنده. وخرج ليبحث عن سكن صاحب البيت؛ فهو يسكن بيتا آخر.

رفض صاحب البيت أول الأمر، فكل الحجرات مؤجرة، لكن خليل أطرق حزيناً وكاد يبكي، فهو لا يعرف ماذا يفعل، كما أن إيجار تلك الحجرات قليل جدا، بالنسبة لإيجار الحجرات والشقق الأخرى، هكذا قال له " بلدياته "

تأثر الحاج مدبولي وقال له:

- يبدو إنك ولد طيب، كما أن " بلدياتك " الذي أرسلك إلي، كان خير ساكن عندي، لم يسبب لي مشاكل قط.

- سأكون عند حسن ظنك يا حاج مدبولي.

(ذكر اسم صاحب البيت كثيرا وبدون داعٍ ليشعره بأنه يعرفه من قبل أن يأتي إليه)

- لكنك ستسكن مع زميل آخر.

- أي حاجة ياحاج، المهم أن أسكن.

بعد أن أخذ الحاج مدبولي أجرة الحجرة، قال له:

- إياك أن تأتي إلي بعد شهور قليلة وتطالب بحجرة منفردة.

***

حكى "بلدياته" له عما سيلاقيه في ذلك البيت العجيب، وأمسك بورقة وقلما وأخذ يشرح له ويرسم الحجرات الكثيرة.

رغم هذا كانت مفاجأة خليل شديدة عندما رأي السطح. بيت كبير جدا قديم، سطحه الواسع به أكثر من خمس عشرة حجرة، تشبه المراحيض العمومية، أو الزنازين الضيقة في القلاع القديمة، ودورتا مياه في طرف السطح، بجوار كل منهما صنبور ذو فم واسع، وطلبة كثيرون يرتدون "البيجامات" ويسيرون بالشباشب، يطرقعون بها، بعضهم يكتفي بالفانلة السواريه، يقفون بجوار السور القصير المتآكل، ينظرون إلى الشقق المواجهة في البيوت القريبة.

كان من نصيب خليل؛ شاب من طوخ يتعلم في كلية الهندسة، اسمه رجب، مجموعه في الثانوية رماه على هندسة الإسكندرية.

رحب رجب بخليل كثيرا بابتسامته الخجلى، ولم يسأله عن شيء. لم يعترض لمشاركته حجرته الضيقة، مما يبدو إنه كان ينتظر هذا، أو أن الحاج مدبولي قد أخبره بذلك من قبل (علم خليل بعد ذلك إن سبب اختيار الحاج لرجب دون سواه، ليشاركه حجرته، أن الولد شديد الحياء ويتلعثم إذا ما حدث من هم أكبر منه سناً. ويحمر وجهه وتكاد عيناه أن تدمعا. وأيضا، لأن الولد لم يدفع إيجار الحجرة لشهرين متتاليين بسبب إعسار يمر به والده في البلدة. وثار الحاج عليه وهدده بالطرد، لكن حضور خليل في ذلك الوقت، حل المشكلة، فرجب سيدفع، سيدفع مهما طال الوقت، فيأخذ الحاج بذلك أجرة حجرتين من حجرة واحدة.

***

مرت سنوات الدراسة، وذهب كل المعاصرين لخليل، تخرجوا في كلياتهم، عمل بعضهم في الإسكندرية وانتقل إلى سكن مناسب، والبعض عاد لبلده وعاش هناك، ولم يتبق سوى خليل. مازال في حجرته كما هو، لكنه يعيش فيها وحده. فقد تخرج رجب وتركه منذ أعوام.

يذكر خليل هذا جيدا، يشعر بالأسى كلما تذكر ذلك. يقف رجب بقامته القصيرة، يتعلق به، يقبله وعيناه تسح دموعا.

ظن خليل إنه لن يستطيع العيش في الحجرة بدونه، وإنه لابد أن يزوره في بلده طوخ مرات ومرات. لكن هذا لم يحدث، ولم يأت رجب إلى الإسكندرية مرة ثانية. واكتفى بعدة رسائل ملتهبة أول الأمر، ثم رسائل باهتة، فاترة، ثم انقطعت تماما.

***

بعد أن تخرج خليل في كلية التجارة، جاء الحاج مدبولي، قال له:

- متى ستترك حجرتك؟

- لماذا يا حاج؟!

دهش الرجل، فالحجرات لم تشغل إلا للطلبة، ولم يطلب واحد منهم – منذ أن بدأ الحاج مشروعه؛ أن يشغل الحجرة بعد تخرجه.

- لكنني لا أرغب في تركها.

- يا ابني......

- يا حاج، أنا أدفع لك الإيجار أول كل شهر.

- لكن الحجرة والمكان لا يناسبانك الآن.

- لا تهتم.

لو كان شابا آخر غير خليل؛ ما وافق الحاج، فالرجل يحرص على أن يكون كل سكان سطحه من الطلبة، فهو يتظاهر أمام سكان بيته الذين يضيقون بهم، إن هدفه من مشروعه هذا هو الصالح العام، وليس الكسب الأكثر. فالطلبة مساكين، ولا يجدون سكنا في غربتهم. ويذكر " حجته " هذه أيضا، أمام المسئولين في محافظة الإسكندرية حينما يحاسبونه على " العوايد".

القريبون من الحاج بيومي يعرفون إن دخله من حجراته تلك، أضعاف دخله من باقي البيت بأدواره الخمسة. فحجراته الصغيرة، لا تخضع لقوانين الإيجارات ولجان التقدير. فهو يحدد قيمة الأجرة كما يشاء. وسكن موظف مثل خليل عنده ، سيفسد حجته تلك وسيحوله لرجل جشع مستغل.

لكن خليل يؤدي له خدمات كثيرة، فهو الذي يجمع الإيجار من الطلبة أول كل شهر، ويذهب به إلى سكنه، وهو الذي يشرف على صيانة الحجرات وإصلاح الكهرباء ودورتي المياه. كما أن خليل عاقل ومتزن، فإذا أساء طالب التصرف مع الجيران (وهذا يحدث كثيرا جدا) يسرع خليل لحل المشكلة مع الجيران قبل أن تصل لقسم الشرطة.

قبل سكن خليل، كان الحاج مدبولي يذهب لقسم الشرطة كثيرا بسبب الأولاد الذين يعاكسون البنات والزوجات في الشقق المواجهة.

حقيقة أن الشرطة لم تتخذ ضده أي اجراء قانوني، ولا حتى ضد طالب واحد من سكانه، لأن الجيران لم يستطيعوا تحديد الطلبة الذين يعاكسون، فكلهم متشابهون ويرتدون البيجامات والشباشب؛ لكن العيار إللي ما يصبش، يدوش.

قال الحاج لخليل:

- على خيرة الله.

وبقى خليل في حجرته كما هو. يشعل " السبرتاية" ويصنع الشاي فوقها، يشربه وهو متكيء على جانب السرير، يقرأ جرائده ومجلاته، منذ أن حصل على بكالوريوس التجارة، لم يقرأ كتابا واحدا.

يزوره بعض الأولاد الذين مازالوا يدرسون في كلية التجارة، ليشرح لهم بعض الدروس. أو أن يأتي بعض الطلبة ليتحدثوا معه في أمور الدنيا.

كلهم يقدرونه ويجلونه، لا ينادون إلا بلقب" أستاذ " يسأله بعضهم بعض النقود سلفة إلى أن تأتيهم نقود أهاليهم، فيعطيهم، فهو الوحيد – بينهم

– الذي يعمل وله راتب شهري. كما أنه يحل خلافاهم التي تحدث كثيرا بسبب استعمال المراحيض أو نشر الغسيل أو رفع صوت المذيا ع، أو اختلاف بعضهم على بنت واحدة من بنات الجيران، يحبوها جميعا.

سأله البعض عن سبب تمسكه بهذه الحجرة، فمط شفتيه ولم يجب. فهو لا يدري ما الذي يجعله يتمسك بها.

المهم أن فكرة الانتقال لسكن خر، لم تخطر بباله. أسيبحث عن شقة أو حجرة، وسماسرة، ووجع قلب؟!

إنها تكفيه، ولقد أعد بها بعض الإصلاحات، مما جعلها – رغم صغرها – جنة. كما أنه لم يحدد بعد، إن كان سيعود لدمنهور – أم سيظل هنا في الإسكندرية.

***

يصحو مبكرا، فيتوضأ ويصلي، ويخرج من حجرته، وباقي الحجرات الأخرى مغلقة. الطلبة نيام مازالوا. يسير في شارع منشا، يذهب إلى عطية البقال الذي يكون مشغولا بإخراج بضاعته أمام الدكان، يساعده خليل أحيانا، ثم يشتري منه إفطاره، الجبن والحلوى الطحينية .. إلخ. سنوات وهو يتعامل معه، منذ أن وضع أشياءه عنده قبل مقابلة صاحب البيت.

الرجل يثق به، يشكو له من بعض الطلبة الذين لا يريدون سداد ما عليهم له، يعلم عطية إن خليل سيأتي بماله منهم، لهذا يعطيهم مطمئنا.

كانت دكانة عطية صغيرة فقيرة؛ قبل أن يشرع الحاج مدبولي في مشروعه هذا. الرجل أعتمد على البيع للطلبة، يأتي لهم بكل ما يلزمهم، حتى الكراريس والأقلام التي يكتبون بها، فكبرت تجارته واتسعت.

بعض الطلبة يتهمونه بسوء الخلق، لأنه لم يتزوج للآن رغم كبر سنه، ولأنه يحابي طالبا ذا عينين زرقاوين وشعر أصفر مسترسل، وجسد يميل للإمتلاء. يعطيه الحلوى دون مقابل، ولا يلح في السؤال عن نقوده؛ إذا ما اشترى منه بالأجل. بينما يطارد الآخرين في ذهابهم وعودتهم.

يبتسم خليل لهذا، فالأولاد كما هم لا يتغيرون، يتذكر ما كان يحدث مع رجب، زميله في حجرته – أيام الدراسة – كان باقي الطلبة يرددون عليه هذا ساخرين، مازحين معه، فقد كان جميلا، ويصبر الرجل عليه ولا يلح في الطلب.

***

تأتي ترام (4) الذاهبة إلى رأس التين، المسافة من أول الخط حتى شارع منشا؛ ليست بعيدة. لذا، يجد خليل – عادة – مقعدا خاليا، يجلس ناظرا إلى الشارع، تزدحم الترام بعد ذلك بالطلبة والطالبات، فحي محرم بك عامر بالمدارس الكثيرة، تصطدم الأجساد بساقيه وجسده.

في محطة مصر، يركب عبد المنعم – صديقه – وزميله في العمل – يشير خليل إليه لكي يصعد.

أحيانا، لا يستطيع عبد المنعم الوصول إليه من شدة الزحام – يحييه من بعيد. إذا استطاع الوصول إليه، يلح خليل عليه بأن يجلس مكانه، فعبد المنعم أكبر منه سناً. رغم أن خليل أعلى منه في الوظيفة، فهو لم يحصل إلا على

الابتدائية القديمة، ويعمل معاونا للمستشفى. يرأس عبد المنعم كل عمال المستشفى.

يحدثه – أحيانا – وهو يقف بجواره عن بعض الأمور التي تحدث في المستشفى الذي يعملان به.

منذ أن عمل خليل بالمستشفى وهو يرى عبد المنعم مبتسما، يحدث التومرجية، يأمرهم وهو يبتسم. إذا تحدث مع مدير المستشفى يبتسم، حتى عندما يثور في عامل من عماله، يبتسم بعد دقائق، بل يخيل لخليل إنه يبتسم حتى وقت ثورته وغضبه.

يدخلان باب المستشفى الحديدي، عامل البوابة يفتح البوابة رافعا يده بالتحية من أجل عبد المنعم رئيسه. حجرته صغيرة بها دولاب ومكتب صدئ وبعض الأوراق ومقعدان أمام المكتب، يجلس خليل أمامه، يفرش لفافته: الخبز الفينو والجبن والحلوى الطحينية.. إلخ. يسرع عبد المنعم بإحضار إفطاره من مطبخ المستشفى: بيض مسلوق ومربى وبطيخ وأشياء أخرى كثيرة.

عارضه خليل أول الأمر، على أساس إن ذلك حق المرضى، لكن عبد المنعم أقنعه بأن الطعام من كثرته يرمونه، فعدم أكله هو الحرام حتى لا نرمي نعمة ربنا في الزبالة.

يتناول طعامه لدى عبد المنعم لأنه يخجل من تناوله أمام قدرية ومديحة الموظفتين اللتين تعملان معه في المكتب. للآن لا يستطيع أن يتكيف مع النساء، التربية في دمنهور مازالت تؤثر عليه. لا يستطيع أن ينادي قدرية إلا بكلمة " مدام " ومديحة بكلمة " آنسة " رغم أن مديحة أقل سنا منه، وهو رئيسهما في نفس الوقت.

لم يزره عبد المنعم في حجرته الصغيرة في شارع منشا، ولم يزره أحد من العاملين بالمستشفى. يلح عبد المنعم عليه:

- لابد أن تجد لك سكنا آخر.

كل عدة أيام، يأتي له بسكن جديد، حجرة فوق سطح بيت في غربال (الحي الذي يسكنه عبد المنعم) أو شقة صغيرة.

وخليل يرفض، فحالته المالية لا تسمح، لابد من إرسال جزء كبير من راتبه لأمه في دمنهور.

***

مديحة جميلة، أقصر منه قليلا، شعرها طويل لم تقصه مثل الكثيرات من موظفات وممرضات وطبيبات المستشفى. هو يحب الشعر الطويل، فالشعر تاج المرأة.

قال لها هذا وسط الحجرة وأمام الجميع، سعدت مديحة، لمست شعرها بزهو وافتخار.

يلاحظ خليل نظراتها نحوه من تحت المكتب، فيتظاهر بعدم رؤيتها.

يعرف إنه ليس وسيماً، وليس أنيقا أيضا، لا يعرف للآن كيف يعقد رابطة العنق. وكيف يعرف هذا وهو لم يرتد بذلة كاملة في حياته. القميص والبنطلون في الصيف، والبلوفر في الشتاء، وربما أرتدي جاكيت من نوع آخر لا يتناسب مع البنطلون أبدا.

عبد المنعم هو الذي يشتري له ملابسه. يذهبان إلى المنشية، يختار له الألوان ونوع القماش، ويساوم البائع حتى يشتريها بأقل سعر ممكن.

مدام قدرية تقول إن عبد المنعم ذوقه سيء للغاية، وإنها في المرة القامة ستذهب معه لتختار له ملابسه. وتعارض مديحة، تؤكد أن ملابس الأستاذ خليل ذوق وقيمة، وحشمة. فيبتسم عبد المنعم ويهمس لخليل: البنت مديحة عينها منك.

لا يفاجئه قوله، فهو يحس بهذا منذ زمن بعيد.

والد مديحة عامل بالمستشفى، يعمل في المطبخ، يأتيها وسط النهار بطعام من المطبخ، يشترك كل الحاضرين في أكله، حتى مدام قدرية، لكن خليل يعتذر وقتذاك ويترك لهم المكتب.

تزوج عبد المنعم صغيرا، لديه الآن خمسة، ولدان وثلاث بنات، الأكبر في كلية الهندسة، والآخر في التجارة، والبنات أكبرهن في الإعدادية. الحمل ثقيل عليه، والمرتب ضئيل لا يكفي.

في وقت العمل، يخرج عبد المنعم، يدور وسط حلقة السمك القريبة جدا من المستشفى، يقابل تجار السمك الكبار، يكتب لهم بعض الطلبات أحيانا، بخصوص الضرائب والتأمينات والصحة .. إلخ. يجمع لهم بعض الحسابات، يدفعون له مبلغا شهريا ولفافات السمك، البعض في حاجة إليه، فهو معاون المستشفى، وهم يسكنون قريبا منها، يحتاجون لدخولها؛ إما للعلاج أو لزيارة مرضاهم الذين يعالجون فيها، يدخلهم عبد المنعم في غير مواعيد الزيارة، ويوصي الأطباء عليهم.

والبعض الآخر يدفع له شفقة، فهم يعلمون إنه موظف على قدر حاله ومصاريفه كثيرة.

الأطباء الكبار في المستشفى لديهم عيادات خاصة، يكسبون منها كثيرا، وعملهم فيا لمستشفى من باب إن فاتك الميري، اتمرمغ في ترابه؛ معاش والسلام.

يوصون عبد المنعم بشراء وجبة سمك جيدة من الحلقة. المال ليس مهما، المهم أن يكون السمك كبيرا وجيدا.

يأخذ عبد المنعم عاملا أوعاملين من المستشفي، ويشتري من التجار – أصحابه – يعطونه بأقل من سعر السوق (الحساب لا يتم أمام العمال الذين يرافقونه) والأطباء الكبار يعطونه حق تعبه، وزوجاتهم يتصلن به تليفونيا:

- عبد المنعم، عندي وليمة، ناس مهمين – في حاجة لوجبة سمك جيدة – الثمن ليس مهماً.

يترك المستشفى ويشتري السمك، ويذهب بالسيارة التي يشتري بها الخضار واللحم للمستشفى –– يعطيهن السمك، وتدفع النسوة أكثر دائما.

عندما يعود عيد المنعم إلى حيه – غربال –؛ يتحول إلى شخص آخر، يقف له الرجال مرحبين:

- تفضل يا عبد المنعم أفندي.

يرد في جدية، ابتساماته في الحي أقل.م شغول دائما بالأشياء التي يحملها لأسرته: سمك وفاكهة وأطعمة من المستشفى، بدلة على مقاس ابنه، أعطاها له طبيب كبير في المستشفى.

معظم من يجالسه في القهوة لا يجيدون القراءة: زبالون، كناسون، أو مهن مقاربة لهذا، لكنهم يكسبون أكثر منه. ويعاملونه وكأنه هو الذي يكسب أكثر منهم، فهو موظف يجلس على مكتب.

يذكر عندما أحيل والده إلى المعاش بعد عمله ساعيا في المحافظة، حدد مبلغا – مساعدة من أولاده – كان نصيب عبد المنعم المبلغ الأكبر – رغم أن أخوته يكسبون أكثر منه. لكن أمام الناس هو موظف، وهم يعملون في الزبالة، يمشون بملابسهم المتسخة، وأحذيتهم القديمة الممزقة، وهو يرتدي ملابس نظيفة وأحيانا، بدلا يعطيها له الأطباء الكبار في المستشفى.

يلجأ الحي كله إليه، إذا اشتكوا من شيء في أجسادهم. يزورونه في مكتبه بملابسهم المتسخة، يسرع بهم إلى الأطباء، يؤكد الناس في الحي – إن عبد المنعم مهم جدا في عمله. بدليل تباسط الأطباء الكبار معه في أحاديثهم – ومزاحهم معه.

***

تعثر ابنه – طالب التجارة في دروسه، فطلب من خليل أن يأتي معه ليساعده في الدروس – وجاء خليل إلى غربال لأول مرة، جلس مع الولد، وشرح له ما خفى عنه. ووعد بزيارته مرات ومرات. حتى يصبح متينا في دروسه.

قدمت زوجة عبد المنعم الطعام لخليل، رفض أول الأمر، لكن عبد المنعم أقسم وألح، حتى استجاب.

أحس خليل أن عبد المنعم في بيته غيره في المستشفى، فهناك لا يدعو أحدا على كوب شاي، لكن في بيته أكثر كرما.

قالت زوجة عبد المنعم عندما انفردت به على السرير:

- خليل طيب، وابن حلال، وليست له أسرة هنا، هو عريس مناسب لهناء.

دفعها في ضيق:

- هناء مازالت في الإعدادية.
- وماله، البنات كبارة.

يعطيها عبد المنعم ظهره ويشرد في أشياء أخرى – بعيدة عما تفكر فيه زوجته.

***

يسهر خليل أحيانا في العمل، خاصة أيام انتهاء الميزانية في شهر يونيه.

تعمل مديحة فوق مكتبها سعيدة، لأنها جلست مع خليل بعض الوقت. يلح عبد المنعم عليه بأن يتناول طعامه معهم، ويرحم نفسه من طعام السوق. يذهبان لحجرة سمير عبد الغفار – أمين المخازن بالمستشفى، في عهدته عدس وأرز وسمن، وباقي الأطعمة التي يمكن تخزينها، وكذلك المعدات الطبية.

يعد عبد المنعم من المخزن وجبة غداء عظيمة، يشترون من الخارج ما يلزم – ويرسل سمير إلى خطيبته " رسمية " الممرضة – لكي تقوم بوضعه في" الفرن الخاص بالممرضات.

يتناولون الطعام في حجرة سمير.

(2)

سمير ليس في حاجة للسهر في المستشفى، فعمله قليل للغاية طوال النهار – يصرف ما تحتاجه المستشفى من مخازنه، وهذا لا يستغرق ساعة أو ساعتين.

لكنه يبقى في المستشفى في الأيام التي تسهر فيها رسمية – خطيبته – لا يستطيع أن يتركها في المستشفى وهو يسمع عما يحدث بين الممرضات والأطباء.

يحبها سمير منذ أن كانا طفلين صغيرين، يتابعها في اهتمام شديد. جسدها المصبوب صباً، وعيناها اللتان تشعان سحرا، لم تكن تحبه، فهو ليس وسيماً، كانوا يسمونه في صغره، أبو راسين. لطول رأسه واستطالتها، كما أن حالة أسرته المالية لم تكن تسمح له بأن يرتدي ملابس أنيقة مثل العديد من أبناء الحي. ولم يكن يمتلك مالا لكي ينفقه على البنات.

لكن رسمية عرفت الكثيرين من شباب الحي: رمضان، طالب الطب الذي يسكن الشقة السفلى في بيتهم والذي كانت تنزل إليه في غياب كل من في البيت، فيضعها فوق ساقيه، ويمنيها بالزواج بعد التخرج.

كانت تحلم بأن يعملا معا في مستشفى واحدة، هو طبيب وهي ممرضة (فقد التحقت بمدرسة الممرضات من أجله) لكن رمضان ترك الحي قبل أن يحصل على البكالوريوس، ولم تسمع عنه بعد ذلك. تحلم الآن بأن تقابله في مستشفى، يعملان معا، فتعيد معه ما كان، ويتزوجها.

وعرفت الولد خميس ابن بائع اللبن ومنتجاته المشهور في حيهم؛ والذي يقف في دكان والده في الصباح. فتذهب إليه، تضع يدها الصغيرة في كفه؛ وهي تعطيه ثمن اللبن والجبن. كانت تبتسم خجلة، وتتباعد عنه، يأخذ النقود مسرعا إذا أحس أن زبونا يدخل المحل.

خميس معروف في الحي بعلاقاته الكثيرة – كان يلعب مصارعة، جسده قوي، وقمصانه ضيقة، محزقة حول الصدر لتكشف عن عضلاته.

ذهبت معه إلى شاليه، كان يمتلكه بالاشتراك مع بعض زملائه المصارعين – قبلها وجعلها تخلع كل ملابسها، فيما عدا قطعة أوقطعتين.

خلال هذه الرحلة كان سمير يراقبها بإعجاب، تجرأ يوما وحدثها، قالت له:

- أنت مثل أخي، وأرجو أن تهتم بدروسك.

حدثته بكبرياء وشفقة، وكأنها أكبر منه – غم إنها الأصغر.

لم يغضب، فهو يعلم أن ظروفه التعسة لا تجعله ندا لها، لكن حدث ما لم يكن تتوقعه، فلقد خطب خميس – ابن بائع اللبن – ابن تاجر غني ومعروف في الحي. ولأن التاجرين غناهما لا يخفى على أحد؛ فقد أقاما حفلا لم يحدث من قبل. أنوار في الشارع الكبير، وفي الحواري التي تقطعه، وزينات وفرق موسيقية كبيرة. وخميس وسط أصحابه يزفونه. بكلمات ملتهبة وداعرة. وسط ضحك بنات الحي. فيما عدا رسمية التي بكت طويلا. ولم يهمها أن تعلم أمها بما كان بينها وبينه.

ذهبت إلى خميس في الدكان مرات، لم تجده، كان شقيقه الأصغر هو الذي يقف فيه. إلى أن وجدته بعد عدة أيام، حدثته في هدوء أول الأمر، إلى أن أضطر أن يرمي نقودها التي تمسكها في يدها، ودفعها خارج الدكان حتى وقعت. وصاح بها سابا أمام الجميع، وكشف عما كان بينها وبينه.

بعد ذلك اقترب سمير منها، ربما أحس أن حالتها الآن- تسمح لها بقبول أي طارق يطرق بابها. لكنه لم يذكر لها أبدا، إنه يعلم بحكايتها مع ابن بائع اللبن.

ووافقت على الخطبة، فقد كانت في حالة ضعف شديد، فلم تعاند أو تكابر، فقد تركها رمضان طالب الطب، بعد أن كانت تترل إليه في شقته. واكتشفت مرة إنه يقبلها بينما أصدقاؤه يتابعونها من حجرة بعيدة. ثم هجرها خميس بفضيحة تحدث الحي كله عنها طويلا.

الحي الذي تسكنه رسمية وسمير قريب من المستشفى، لهذا فضلا أن يعملا معا، هو أمين مخازن وهي ممرضة.

دهشت صديقاتها في الحي، عندما حضرن حفل الخطبة، فقد كن يسمعنها تسخر منه، قالت لهن مرة:

- سأحكي لكن حكاية مسلية، فقد تبعني سمير أبو راسين، وأراد أن يشكو لي حبه.

رسمية الإبنة الوحيدة لأمها، مات أبوها دون أن ينجب سواها، وظلت أمها دون زواج من أجلها، وترك الرجل لها ولأمها عدة بيوت صغيرة، منها البيت الذي تسكنه. إذا أردنا أن نصفها، فلن نجد وصفا أكثر دقة من

قول رمضان – طالب الطب – عنها، عندما وصفها لاصدقائه " إنها أنوثة مركزة "

فهي ليست طويلة، ولا قصيرة. لكن الأنوثة الصارخة فيها: الصدر البارز، والردفان في مستوى المقاييس المثالية للجمال، ووجهها مستدير، كل ما بها يوحي بالأنوثة أكثر من الجمال. شفتان ممتلئتان وعينان لوزيتان في اتساع، لكن لا تستطيع أن ترى جمال الوجه، إلا إذا ما خلعت نظارتها التي ابتليت بها منذ صغرها. فقد أصيبت بحساسية في عينيها، جعلتها تدمع طوال الوقت من الضوء الشديد.

وشعرها ثقيل، شديد السواد، يرقص على ظهرها إذا سارت.

***

مشكلة رسمية إن سمير يغار عليها كثيرا جدا، وهي تزيد ذلك اشتعالا. تفعل ما يجعله يزداد غيرة، تمازح الأطباء الشبان، تمسك أيديهم مداعبة، وتضحك بطريقة نزقة؛ تجعل الكل ينظر إليها.

ولقد نبهتها رئيسة القسم الذي تعمل به لخطورة ما تفعله، وجازتها عواطف رئيسة جهاز التمريض بيوم جزاء بعد أن حذرتها كثيرا لهذا، لذا يضطر سمير لأن يسهر في المستشفى إذا كان تعمل في المساء.

بعد تناول الغداء وشرب الشاي، يذهب عبد المنعم لقضاء بعض الحاجات خارج المستشفى، واعدا خليل بأن يعود خلال ساعة، وبذهب خليل إلى مكتبه لانهاء عمله، ويبقى سمير وحده في مخزنه، حوله أجولة السكر والأرز والعدس، ورسمية في سكن الممرضات بعيدة عنه، أو في عملها تشرف مع الطبيب على المرضى المحجوزين.

يغلق المخزن ويصعد إلى سكن الممرضات، رسمية ترتدي منامتها المحكمة حول جسدها الرائع، تقترب البنات منه، يحدثنه عن رسمية، يسألونه عن أجمل ما فيها في رأيه، وعن موعد زفافهما، وعن أشياء أخرى كثيرة. يجيب سمير عليهن في خفة، مما يجعلهن يضحكن. ويجلس بجوارهن على السرير . ويتطور الحديث حتى الولوج لمناطق الخطر في مواضيع الزواج.

بعض البنات يخجلن ويبتعدن، والبعض يفرح وينتشي، وتجيئ عواطف – رئيسة جهاز التمريض – فتسرع كل واحدة إلى سريرها. فتجد سمير جالسا فوق سرير خطيبته، تحييه في ضجر، وتبتعد عنه، بعد أن يذهب تلوم رسمية لذلك:

- المفروض أن المكان مخصص لراحة الممرضات، فكيف يدخل عليهن وهن في وضع مثل هذا.

وسمير لا يستطيع الخروج من المستشفى؛ وخطيبته فيها، فتتكرر رؤية عواطف له في سكن الممرضات، لم تستطع عواطف السكوت عليه، فصرخت فيه:

- عيب يا أستاذ سمير، البنات يخجلن منك، أنت تمنع حريتهن بأفعالك.

وينزل سمير حزيناً.

***

بدأت عواطف عملها حكيمة في مستشفيات وزارة الصحة، لا تذكر عدد السنوات الآن؛ ولا حتى لوالدها الذي تعيش معه وحدها الآن.

إذا تحدثا معا؛ وتطرق الحديث ليوم تعيينها وبداية عملها بالمستشفيت، يحاول الرجل المسن أن يتذكر فلا تساعده، بل تحاول إبعاده عن ذلك؛ رغم إنها تعلم أنها أقرب الناس إلى قلبه. لكن ذكر عدد السنين التي تعمل بها؛ تضُّر بها وتتمنى أن تنسى التاريخ، وكل ما يتصل به. تنسى علم الحساب والأرقام، حتى لا تذكر يوم مولده، والسنة التي ولدت فيها.

لم تكن تظن – فور تعيينها إنها ستظل لأكثر من عشرين عاما دون زواج. وإنها سترى زميلاتها تتزوج الواحدة تلو الأخرى، وهي تنظر إليهن، وتحضر حفلاتهن، وتبتسم لهن ولأزواجهن، ولا يكون لها حفل زفاف طوال هذه المدة الطويلة.

ماتت أمها قبل أن تراها تلبس طرحة الزفاف، وشقيقها الوحيد الذي يصغرها بخمس سنوات وأكثر؛ تزوج وأنجب، وابنته في الابتدائية الآن (لا تدري في الحقيقة إن كانت في الابتدائية أو الإعدادية) فالسنوات لم تعد تعنيها، من فرط عدم اهتمامها بعدها. اعتادت أن تنساها حقيقة. البعض يظن أنها تتناسى، لكنها تنسى حقا، يذكرون أمامها أن مدير المستشفى جاءهم منذ خمس سنوات، فتعجب من هذا. فهي تظن أنه لم يمر عليه في المستشفى أكثر من سنتين وشهور قليلة. أو أن الدكتورة فلانة تزوجت من عشر سنين، فتدهش وتؤكد أن ذلك الرقم مغالى فيه، وتظنها لم تكمل الخمس.

ظلت هي ووالدها في شقتهما الواسعة بشارع السلطان حسين، تسهر في المستشفى أحيانا، وتعود، تفتح الباب بمفتاحها، فتجده نائما في حجرته، تخلع ملابسها، وتسير في الشقة على حذر، فهو إن استيقظ سيظل

ساهرا للصباح، وصحته لا تساعده على ذلك، فمن الممكن أن يمرض بسبب موضوع كهذا، أسبوعا أو أكثر.

تحس بالملل، النوم يأتي بصعوبة، تظل تذكر السنوات الطوال التي مرت من عمرها دون زواج، عملت في مستشفى الحميات في أول دفعة من معهد التمريض العالي. بجسدها الضامر، الشديد النحافة، ولونها الأصفر. أمها بحثت لها عن وصفات تعيد إليها نضارتها وتزيد من وزنها، فأخذتها إلى " حلقة السمك " لتشرب دم الترسة، لكن ذلك لم يغير شيئا من جسمها، فظلت ضامرة كما هي، قابليتها للطعام ضعيفة للغاية.

لم تكن تظن إنها بعد سنوات قليلة تنتقل إلى هذا المستشفى الذي لا يبعد عن حلقة السمك سوى أمتار قليلة.

تأتي الممرضات إليها، يقلن لها يا " أبلة " توزعهن على أقسام المستشفى المختلفة، تشرف على عملهن، تجري التحقيق معهن إذا أخطأن وتحدد العقوبة بنفسها، طبقا للائحة التي تعرفها جيدا.

تجلس مع خليل أفندي – مراقب حسابات المستشفى – تسلمه الجزاءات، تجلس أمامه، أوراق الجزاءات كثيرة، واحدة تطاولت على طبيب، وأخرى تغيبت عن ورديتها بدون إذن...إلخ. ويكتب خليل أفندي قيمة الجزاء أمام كل اسم في الكشوف.

صوت عواطف رفيع، حاد، شعرها مجعد، تكويه كثيرا، لكنه يعود إلى تجعده بعد قليل. أنفها صغير لا يحتمل النظارة البيضاء فوقه، فدائما ترفعها بإصبعها لأعلى.

يأتي عبد المنعم المعاون – يبتسم لخليل، يهمس لعواطف، فترد:

- لكن شروة السمك السابقة لم تكن جيدة.

- كيف يا دكتورة، لا، هذه المرة أفضل بكثير.

نقود عواطف كثيرة جدا – تعمل منذ سنوات طوال، وراتبها ليس صغيرا، وهي ليست في حاجة لمصاريف، فوالدها معاشه كبير، ولديه عدد من البيوت الصغيرة، تدر عليه مبلغا لا بأس به، كما أنها تكاد لا تخرج من بيتها بعد عودتها إليه من المستشفى، حتى الملابس لا تنفق عليها كثيرا.

هي كريمة مع العاملين بالمستشفى، تدفع بقشيشا كبيرا إذا قدم تومرجي خدمة لها، أو اشترى لها شيئا من خارج المستشفى، تعرف أن عبد المنعم صديق خليل، يخرجان معا من باب المستشفى. ويقضيان الوقت معا، إما في حجرة عبد المنعم الصغيرة، أو أمام مكتب خليل الكبير. تعرف هي هذا – فعملها يرتبط بالاثنين. فخليل هو الذي يخصم الجزاءات التي تقررها من مرتبات الممرضات والعمال – وعبد المنعم يرأس عمال المستشفى ولابد من وجوده وقت التحقيق معهم.

يدور الحديث حول السمك الذي يشتريه عبد المنعم من تجار الحلقة.

تسكن قدرية قريبا من المستشفى، وتعرف الصيادين معرفة جيدة، بعضهم يدقون بابها ويأتون بالسمك إليها. لهذا عبد المنعم لا يعرض سمكه عليها. أما مديحة فأبوها من " الجعافرة " بلد معظم الصيادين في رأس التين. وأقاربه يعملون بالصيد، بعضهم أصبح من التجار الكبار، يهدونه السمك

أحيانا دون مقابل. فالاثنتان – قدرية ومديحة لا يهمهما سمك عبد المنعم، ولا حديثه الدائم عنه.

لكن المستشفى كله يشهد بأن عبد المنعم لا يأخذ سمسرة من موظف فقير أو عامل بالمستشفى، بل لو رآه يشتري من الحلقة، يوصي عليه التجار، ويلح عليهم حتى يبيعون إليه بسعر أقل.

وعواطف تنظر إلى خليل الذي يبتسم في تثاقل، لا تعرف عنه إلا القليل، تعلم في الإسكندرية ومازال يعيش عزبا فيها.

لا تراه يمازح الممرضات، أو يسعد إن جلست إحداهن بجواره؛ مثل العديد من موظفي المستشفى.

تحكي عواطف عما حدث في المرة السابقة، الخادمة أعدت السمك، ووالدها أحس بعسر هضم فلم يذقه، اكتفى بعلبة زبادي – والكمية كبيرة وهي وحدها، اتصلت بأخيها، لكن زوجته أعتذرت فهي لا تستطيع الحضور إليهم، لأن حرارة ابنتها مرتفعة.اضطرت عواطف أن تعطي باقي السمك للخادمة لتأكله مع أسرتها في بيتها.

من الحديث عرف خليل إن شقتهم واسعة جدا، بها خمس حجرات واسعة، وصالة كبيرة يمكن أن يقام فوقها ماتش كرة، ودورتان للمياه واحدة عربي والأخرى أفرنجي.

قالت قدرية لها:

- ليتك تتزوجين فيها.

ضحكت مديحة وهي تنظر داخل درجها المفتوح، وقالت عواطف معترضة:

- لا، لابد من شقة خاصة بنا.

حاولت قدرية أن تخفي ابتسامتها، لكن عواطف مازالت تنظر إليها، فلمحتها.

سكتت فمن ذلك الذي تتحدث عنه، من ذلك الذي ضمته إليها، لتكون لهما شقة خاصة بهما؟

دار الحديث عن أشياء كثيرة في المستشفى. مديحة تهتم بخليل اهتماما خاصا – تعد له الشاي بنفسها، وتضعه أمامه.

عواطف منذ أن عملت بالمستشفيات وهي تعرف هذه الطريقة التي تؤدي أحيانا للزواج.

بعد شهور قليلة سنسمع عن خطوبة خليل لمديحة، نعم، فهو عز الطلب . غريب عن الإسكندرية، والبنت جميلة كل ما فيها يغري.

سألته قدرية وهي تنظر إلى مديحة:

- ألم تحدد موقفك، إن كنت ستذهب لدمنهور أم لا؟

- أحس بالاختناق كلما ذهبت لدمنهور، لكن أمي مازالت تعيش فيها، مرتبطة بأخواتي البنات المتزوجات هناك، لا تريد أن تتركهن.

قدرية مشتركة مع مديحة في الإيقاع به.

مر الوقت دون أن تحس عواطف، فلمت أوراقها وقالت:

- نكمل في الغد.

وطوى خليل كشوفه، وضعها في درج مكتبه.

***

ابتسمت عواطف في المساء وهي تتذكر ما حدث اليوم.

محاولة مديحة وقدرية الإيقاع بخليل. لم تغضب، ولم تحزن، ولم تحس بالغيرة، بل سعدت لمتابعة هذا. خليل ليس وسيما. وملابسه ليست أنيقة، كما إنه لا يعرف أن يقول كلمتين على بعض. لكن جسده قوي كثور، المستشفى كله يتحدث عن هذا. كما أن أزمة الزواج جعلته دون جوانا في نظر مديحة.

أرادت أن تحدث والدها في هذا – أن تشركه في لعبتها الجديدة المسلية.

تحس أن أباها لم يعد يهتم؛ كما كان من قبل؛ بالبحث لها عن زوج، أو يتحمس لزواجها، لعله أسلم الراية وقنع بالهزيمة، كان في الماضي يعدها بأن يهديها " الصيني " الذي تركته أمها، والذي ليس له مثيل الآن. وعندما تزوج عادل – شقيقها الوحيد – رفض أن يعطيه لزوجته، قال إنه ملك عواطف. لكن في السنوات الأخيرة لم يعد يحافظ عليه، إذا جاءهم ضيف مهم، يطلب منها أن تخرج بعض أكوابه، أو أطباقه، واكتشفت – أيضا – إنه أهدى زوجة شقيقها أحد أطقمه.

كان والدها يرتدي روبه الثقيل، ويتدثر بالبطانية، فوق مقعده العريض، يلبس نظارته ويقرأ الجريدة.

ترددت كثيرا ثم قالت:

- شاهدت اليوم، محاولة للإيقاع بشاب ريفي.

أهتم الرجل بالحادثة، ظن أنهم مجموعة من النصابين اصطادوا شابا ريفيا، ليخدعوه.

حكت له ما حدث. ابتسم وأحس بأن الموضوع لا يستحق اهتمامها– فما قالته الفتاة أو مساعدتها المتزوجة – لا يعني بالضرورة إنهما يعدان للإيقاع به.

ثم عاد ثانية إلى جريدته. وظلت هي شاردة فيما حدث. فكرت، ما دام والدها لا يهتم بموضوعاتها تلك، فلتشرك معها إحدى صديقاتها، من تلك التي ستستمع لأفكارها؟!

كل من في المستشفى لا يصلحن لها، أول ما سيفعلنه هو إبلاغ مديحة أو قدرية بأحاسيسها نحوهما، وليس لها صديقات خارج المستشفى، كلهن متزوجات وأصبحت مشاغلهن تافهة، الطفل الذي لا يكف عن البكاء، والزوج الذي يقلب الدنيا لأنه اكتشف قطع زرار قميصه.

تسربت من الصالة الكبيرة إلى حجرتها، أطفأت النور، وحملقت في سقف الحجرة طويلا.

أحست – بعد ساعات – بوالدها يغطيها ويغلق باب الحجرة عليها في حذر.

(**3**)

كان عبد المنعم يتحدث وخليل شارد في ترام العودة.

رغم أن الساعة الثانية الآن – موعد خروج المدارس والموظفين – إلا أن الترام لم تكن مزدحمة، فقد ركباها من أول الخط (محطة رأس التين)

مديحة جميلة ورقيقة، لو أخذها معه في دمنهور ستفرح أمه بها، فليس في عائلتهم من تدانيها في جمالها، لكن والدها فقير، لا يستطيع أن يجهزها، أنه لن يهتم بهذه الأشياء الآن.

كان عبد المنعم يتحدث عن مدير المستشفى، وعما حدث معه بالأمس، أعطاه مبلغا من المال ليشتري علبة جاتوه من محل مشهور؛ بمناسبة عيد ميلاد ابنته، على أساس أن القطعة بخمسة وسبعين قرشا، فاشترى عبد المنعم القطعة بخمسة وأربعين، الكمية كانت كبيرة، فحصل على مبلغ كبير، العمال الذين حملوا الجاتوه، وقت الحساب كانوا في سيارة المستشفى.

قال خليل:

- لكن هذه سرقة.

وضع يده فوق ذراعه:

- سرقة، عندما تكون مع واحد غلبان مثلك، مدير المستشفى يأخذ عشرة جنيهات في الكشف.

ويحسب عبد المنعم دخله في الليلة الواحدة.

يريد خليل أن يهرب من هذه السيرة، ويعود إلى مديحة برقبتها البيضاء، والشعيرات السوداء التي تنزل فوقها، والوجه المبتسم دوما، لكن عبد المنعم مصر أن يكمل حديثه عن الذين يكسبون كثيرا، وعن حاجته إلى المال التي لا تنتهي، جلسته في" غربال " تتطلب منه أن يقدم الطلبات لكل من يفد على مجلسه في القهوة. أخوه الأصغر – الذي يعمل لدى أحد الزبالين بالأجرة – دخله أكبر منه بكثير – يوميته تصل إلى سبعة جنيهات، هذا غير ما يجده في الزبالة من ملاعق وشوك ودخان يبيعه بمال كثير، ويجد أحيانا بعض النقود وقطع الذهب، رغم هذا لابد أن يظهر عبد المنعم في صورة أحسن منه.

قال خليل فجأة ليغير الحديث، ويوجهه للوجهة التي يريدها:

- ما رأيك في البنت مديحة؟
- تريد أن تتزوجك.
- أعلم، لكن رأيك أنت فيها؟
- كزوجة، لا تصلح.
- لماذا؟!
- أنت تعرف أباها، وحالته المالية التي لا تسر عدو ولا حبيب.
- وما صلة أبيها بهذا؟!
- الزواج ليس فتاة جميلة فحسب، لابد من جهاز وشقة وأشياء أخرى كثيرة.

- نعم.

- أم تريد أن تتزوجها في حجرتك مع الطلبة العزاب؟!

ضحك عبد المنعم لهذا الخاطر، تخيل مديحة وهي بقميص النوم، وسط السطح الكبير، تنشر الغسيل، والطلبة ينظرون إليها في نشوة ويختبئون.

قال خليل:

- لكن.

لم يقاطعه عبد المنعم، لكن هو لم يجد ما يقوله، إنه معجب بجمال البنت، ومن حقه أن يفكر في الزواج، لكن هناك أشياء لم يكن يحسب حسابها.

قال خليل فجأة:

- ماذا ترى، لو نقلت نفسي لمستشفى دمنهور، وأخذت مديحة معى، هناك المساكن أقل مشكلة.

- مديحة لا تصلح لك في أي مكان – الشقق في دمنهور بالخلو أيضا، ولابد من جهاز، وأنا أدرى منك بحال أبيها.

قبل أن يفكر خليل في الرد، أكمل هو:

- ومن أدراك إنها ستوافق على النقل لدمنهور؟!

- لو كانت تحبني، ستذهب معي لآخر الدنيا.

- حب؟! يا خليل أفهم، إنها تريد زوجا فحسب.

اقتربت الترام من محطة مصر، فاستعد عبد المنعم للهبوط. ثم قال وهو يقف بجوار خليل، وبصوت خافت حتى لا يسمعه الواقفون بجواره:

- يمكنك أن تأخذ البنت لمحل عام وتعرف ما تريد، لن يكلفك هذا سوى ثمن كوبين ليمون.

نظر إليه في دهشة، وأراد أن يرد أو يثور، لكن المحطة اقتربت، والراغبون في النزول يدفعون عبد المنعم من الخلف ليسرع.

***

قبل أن يدخل باب البيت، يمر على عطبة البقال، يشتري منه " حجارة " للراديو الصغير، وبعض الأطعمة، فهو لا يفكر في الخروج اليوم من حجرته.

أغلق الحجرة ونام بملابسه، سمع صوت الطلبة، كلمات المذاكرة وسبابا وضحكا وزعيقا.

وضع حجارة الراديو وسمع تمثيلية لم يفهم منها شيئا، أدار المؤشر، لم يجد أغاني؛ فأغلقه ودفعه على المائدة.

دق بابه أحد الطلبة، أراد خليل ألا يفتح، فهو ليس مستعدا لسماع أحد، ولا أن يشرح درسا لأحد.

لكن الطالب ألح، ثم تبعه طالبان آخران، جلس أحدهم بجواره على السرير، والآخران جلسا على مقعدين، تحدثوا عن عطية البقال ونوادره معهم. أصابعه التي تلامس خدود بعضهم، وصوته الذي يشبه صوت النساء. قال أحدهم: إنه غير متزوج، ويمتلك بيتا في شارع عرفان.

وقال طالب آخر – يسمح عطية له بمساعدته في البيع لزبائنه:

- ليته يموت قبل أن أتخرج لأرثه، فليس لديه أحد، لا زوجة ولا أولاد ولا أب ولا أم.

أحس خليل بالتعاسة لحديثهم، تذكر أمه العجوز التي تعيش في البلد، تشرف على زراعة قطعة أرض، يزرعها زوج ابنتها الكبرى.

لو مات خليل في حجرته تلك، سيصل أخواته وأمه بعد أن يدفن، سيدفنه الأغراب.

أحس بالضيق من الحجرة ومن الطلبة حوله، استأذن لدخول دورة المياه، فانفضوا من حوله.

ذهب إلى غربال، كان عبد المنعم يجلس على القهوة – كعادته في ذلك الوقت – يرتدي قفطانه الأبيض، وحوله أقاربه، فوجئ به أمامه، استأذن رفاقه وأخذه لبيته. ظنه آتيا ليساعد ابنه طالب التجارة في دروسه، لكنه رآه مهموما، فأحس أن ذلك بسبب حديثه له في الترام:

- إيه، مالك؟!

- أفكر في العودة لدمنهور.

- بدون مديحة؟

- نعم، وحدي.

ضحك عبد المنعم وقام ليطلب من زوجته أن تعد العشاء له. جاء ابنه طالب التجارة، تحدث خليل معه دون حماس، ثم فوجئ بالمائدة تفرش بورق الجرائد إيذانا بدخول الخبز والأطباق.

- ما هذا يا عبد المنعم؟

- لا تقل شيئا، لابد أن تتعشى معنا.

***

في الصباح أحس برغبة في البكاء بعد أن توضأ، تذكر أمه وأخواته، وأحس بأن الحجرة قد ضاقت عليه، وأن أصوات الطلبة المستعدة للذهاب لكلياتها؛ تضايقه، حاول أن يهرب منهم.

سار دون أن يمر على عطية البقال ككل يوم، وتعمد ألا يركب الترام حتى لا يقابل عبد المنعم، سيسير حتى محطة مصر، ويركب أتوبيس **6** من هناك.

سيحصل على إجازة أسبوع ليسافر دمنهور.

تذكر عطية البقال في طريقه، وما يقوله الطلبة عنه، قرصه لخدود الطلبة، والبنت رسمية خطيبة سمير عبد الغفار التي تضحك في خلاعة، وتهز ردفيها وهي سائرة، وتظهر شعرها الشيد السواد من تحت طاقية الممرضات.

تذكر ما يحكونه في المستشفى، حكايات قدرية ومديحة: الممرضة التي ضبطوها مع أحد الأطباء في حجرة الإفاقة، وهانم – التومرجية – التي تعمل عاملة في المساء، وتغطي شعرها بإيشارب، ويبدو وجهها الأحمر مدهونا بالأصباغ، وحديثها الواثق لأطباء الامتياز الشبان.

هو لم يفكر في فتاة أو امرأة طوال عمره، كان يدهش عندما يرى طالبا يلوح لفتاة في نافذة أو شرفة قريبة، ويدهش أكثر لطالب يسبب مشكلة بسبب معاكسة امرأة تسكن في مواجهة البيت الذي يسكنونه الآن.

ربما تدينه، وتربية القرية – التي جاء منها – عصمته من هذا. لكن البنت مديحة جميلة جدا، يحاول أن يبدو غير مهتم بها، لكنه يضعف.

تقرأ قدرية الجريدة، تحدث مديحة ضاحكة في حياء، شاب ريفي متدين، قطع " ذكره " بالموسى، فأغمى عليه، نقلوه إلى المستشفى، يقول إنه فعل هذا بنفسه خوفا من الفتنة.

تذكر قدرية حكاية حامد – عامل بوفيه الشركة – الذي قطع الإنجليز " ذكره " أيام الحرب العالمية الثانية، كان شابا مفتونا بنفسه، لم يزد عمره عن السابعة عشر، قابله الإنجليز السكارى ومعه امرأة إنجليزية كانت تعشقه وتنفق عليه كثيرا، زوجها ضابط بالجيش الانجليزي، يحارب في مكان بعيد عن الإسكندرية.

الانجليز ضربوا المرأة وأصروا على قطع " ذكر " حامد أمامها.

يبدو حامد الآن حزينا، يتابع الممرضات العاريات في أسى، يقترب من الخمسين، لكنه يبدو أصغر من ذلك بكثير.

أتوبيس 6 أسرع من الترام، يصل إلى المستشفى مبكرا، يدخل الباب الحديدي دون عبد المنعم (يحدث هذا مرات قليلا جدا خلال العام) يجلس فوق مقعده، العمال مازالوا ينظفون البلاط في الردهات والمكاتب – هانم التومرجية تكنس امام البوفيه، لم يرها تمسح البلاط، مثل سائر التومرجيات.

يقولون إنها تدفع شهرية لعبد المنعم لكي لا تعمل عملا متعبا، وكي لا تعمل في وردية الليل التي تتعارض مع عملها كعاملة.

يأتي عبد الحكم – وهو طبيب شاب من بلدة قريبة من بلدة خليل – مقيم بالمستشفى – يهمس لهانم، فتترك مكنستها وتضحك بصوت مرتفع.

عبد الحكم مشهور بعلاقاته مع الممرضات الدميمات اللاتي لا يرضى بهن أحد سواه، ومع التومرجيات اللاتي يوافقن على ذلك. نوادره مع هانم غريبة، تسخر منه أمام الجميع، يهددها بأنه سيوقع عليها جزاء، كان ذلك أمام بعض الأطباء زملائه والممرضات، فتتحداه قائلة:

- لو رجل أفعلها.

فيضطر أن يجاريها مدعيا إنه كان يمازحها.

دخل خليل حجرته، جاءت هانم تكنس الحجرة، قالت:

- صباح الخير يا خليل أفندي

أرادت مرة أن تتباسط معه في الحديث، فصرخ فيها غاضبا وأمرها أن تلتزم حدودها وإلا تسبب لها في خصم ثلاثة أيام كاملة فخافت واعتذرت له، ومن يومها وهي تحترمه، ظنته مثل عبد الحكم الذي يضعف عندما يراها منحنية أمامه – كل زملائه يسخرون منه لذلك ويسمونه " مجنون هانم " وهو لا يغضب، وطوال الوقت يحدثهم عن مفاتنها.

من الممكن أن يحدث لخليل هذا، فهو ريفي مثل الذي قطع " ذكره " خشية الفتنة. ومثل عبد الحكم الذي يعشق هانم التومرجية.

ماذا لو طلب من مديحة أن يقابها خارج المستشفى. قد تثور عليه أمام الجميع. وحتما ستخبر قدرية – صديقتها وعونها – وسيصل الخبر لأبيها " الجعفري". سيأتي من المطبخ بسكين البصل، ويشده للمدير، وتحقيق، والله أعلم بما سينتهي، خصم، وربما نقل، غير الفضيحة. وربما سيصل الخبر لأهله في دمنهور. أو يأتي أبوها بأقاربه الصيادين، فينتظرونه بسكاكينهم وعصيهم.

تأتي قدرية بحقيبتها المنتفخة، معروفة في المستشفى بطعامها البيتي: الباذنجان والملوخية، لا يعجبها طبيخ المستشفى، لا تأخذ سوى البيض واللحم والفاكهة، حتى اللحم تعيد طهيه في بيتها.

قالت له:

- عبد المنعم أجازة اليوم؟
- لماذا؟!
- لأنه لم يأت معك.
- لا، لقد جئت وحدي بالأتوبيس.
- آه.

ظنها ستسأل عن سبب لك، وهل هو غاضب منه، لكن المرأة أسرعت قائلة:

- إننا وحدنا الآن، وفرصة لكي نتحدث قبل ان يأتي أحد.
- في ماذا؟!
- في موضوع مديحة.

- وما شأني به؟!

- إنها مناسبة لك، البنت جميلة ومؤدبة، ومنكسرة.

- لكنني لا أفكر في الزواج الآن.

- أستظل في حجرتك الصغيرة إلى الأبد؟!

أرد أن يصرخ فيها، قالت:

- أنت مثل أخي الصغير، وسأدلك على الطريق المستقيم، أنت وحيد هنا وفي حاجة لمن يساندك. أدخل في جمعية معي، أو مع أهل مديحة، ومن هذه الجمعيات تستطيع أن تلم نفسك.

قبل أن يجيبها دخلت مديحة مبتسمة، أحست أن قدرية كانت تعمل من أجلها. وضعت حقيبتها وظلت تنظر إليه في رضى. وتحدثت مع قدرية حديثا خافتا، ثم قامت قدرية قائلة لهما:

- سأعد الشاي في المطبخ.

وحده مع مديحة الآن، البنت ترتدي ثوبا مشجرا يظهر رقبتها الطويلة. أحست – دون أن يقول لها – إنه يحب مثل هذه الفساتين التي تكشف عن مفاتنها. قامت قدمت له لفافة طعام:

- أستاذ خليل، أمي أعدت .....

لم يسمع باقي حديثها، أمسك يدها قائلا:

- مديحة، أريد التحدث معك.

بهتت، نظرت إلى الباب في خوف، وإلى الطرقة الطويلة التي تسير التومرجيات فيها، وبعض الممرضات من بعيد. قالت في ضعف شديد:

- تحت أمرك.

- لكن هنا لا أستطيع.

- تقصد......

- نعم.

ترك يدها، ظنها ستصيح فيه وتقول إنها ليست منهن، وليس كل الطير يتاكل لحمه... إلخ.

ابتسمت وعادت لمكتبها، وهي تنظر إليه في امتنان، كان وجهها أحمر وكأن دموعا تنبثق من عينيها.

قام من مكانه، ارتعشت، ظنته سيمسكها أمام الطرقة الممتدة أمامهما، لكنه دس ورقة صغيرة في يدها، بها اسم المحل العام الذي سيتقابلان فيه، والموعد.

لم تقل مديحة كلمة واحدة طوال الوقت، ظلت تنظر إليه في شرود، لا هي مبتسمة ولا غاضبة، إنها لم تقابل رجلا خارج المستشفى أو البيت. أبوها جعفري، قد تؤدي مثل هذه الأشياء الصغيرة إلى القتل.

لكن خليل أفندي ليس سيئا ولا شك يريد أن يحدثها في أمر الزواج، كما أن والدها يعجب به، يثني عليه دائما أمام أمها. لعل الرجل أحس بإنه يريد أن يتزوج ابنته.

جاءت عواطف بعد ذلك تحمل أوراقها، كان شعرها ملموما، ومعطفها الأبيض يبدو لامعا. حيتهم في ابتسام كأنها تريد أن تقول شيئا. جلست أمام خليل، أحس بإنها قد جاءت مبكرة عن كل يوم، فرشت أوراقها وهو غير راغب في فتح كشوفه، غير راغب في النظر إليها ولا إلى أوراقها.

جاء عبد المنعم، أراد أن يعاتبه لأنه لم ينتظره ككل يوم، لكنه أحس بأن في الأمر شيئا غير عادي، فمديحة مرتبكة، تنظر لعواطف التي أفسدت بحضورها اللقاء. وعواطف تتابع الجميع وكأنها تتابع مؤامرة كبيرة، وسوف تكشفها بعد قليل.

خرج عبد المنعم دون أن يبتسم كعادته، كانت قدرية تلح على مديحة بأن تحكي لها ما حدث في غيابها.

لابد أن شيئا قد حدث، فهي تعرفها وتعرف أحوالها، والبنت مصرة على الإنكار. مادام الأمر وصل لهذا الحد؛ فلابد من الاحتراس. قدرية تساعدها حقا، لكن من الممكن أن تفشي بأسرارها لو جلست في مكتب آخر، أو صعدت لسكن الممرضات.

أحست عواطف أن شيئا قد حدث اليوم. فقدرية صامتة على غير عادتها. ومديحة شاردة ولا تبتسم كعادتها، وخليل غير راغب في العمل، ينقل إصبعه إلى اسم الممرضات والعمال الموقع عليهم الجزاء في غير حماس. لولا أن الوقت ضيق؛ ولابد من تسلم الكشوف إلى الأجور خلال يومين على الأكثر؛ لقال إنه غير قادر على العمل اليوم، وعليها أن تأتي في الغد.

كان صوت عواطف الرفيع الواهن، هو الذي يشق صوت الصمت في الحجرة من وقت لآخر. خليل لا يجيب، يومئ برأسه، أو يهمس لها، كأنه يحس بالحياء من مديحة، فلا يستطيع أن يسمعها صوته.

(4)

فكرت رسمية كثيرا في إنهاء علاقتها بسمير عبد الغفار لعدة أسباب، أهمها:

إنها لا تحس معه بما كانت تحسه مع رمضان طالب الطب، ولا مع خميس ابن بائع اللبن في حيهم، ولأنه مازال في مستوى لا يروق لها، مؤهل متوسط، ومرتب ضئيل، كما أن أسرته مازالت فقيرة وفي حاجة لمساعدته، هذا غير غيرته الشديدة عليها،

بطريقة تثير أعصابها وتقيد انطلاقها وضحكها ومعاملاتها مع الأطباء الشبان الذين يرغبون في الحديث والمزاح معها.

لكن تفكيرها هذا ينتهي دائما إلى لا شيء، فإنها تتذكر فشلها مع خميس ابن صاحب محل الألبان، وإن الحي كله علم بما بينهما (أمها لا تعرف للآن بحكايتها مع رمضان طالب الطب) كما أن العديد من أهل الحي ينتظرون فشل خطوبتها لسمير، ويراهنون على أن هذا سيحدث في القريب.

ولو تركها سمير فمن سيخطبها؟! كل الذين يعجبون بها يكتفون بحد معين، يصل دائما إلى ما قبل الخطوبة، ومن الممكن أن يصل حالها لحال عواطف رئيستها في العمل.

سمير يتحمل الكثير من أجلها، أمه تعارض تلك الزيجة من أول يوم فكر فيها:

- يا ابني، رسمية ليست مناسبة لك.

ظن أن أمه ستغير رأيها بعد ذلك، لكن الأيام تزيدها إصرارا،فتصرفات رسمية تؤكد رأي أمه.

لا تزورهم إلا في المناسبات، وإذا جاءت تتأفف من شقتهم المتواضعة وترفض أن تذوق شيئا لديهم، كما أن الأم تسمع مع النسوة – في الحي – عن ذهابها لمحل الألبان الذي يشرف عليه الولد خميس للآن. وإنها تقف على الناصية تحدث الشبان وتحكي معهم في خلاعة؛ فهي ليس لها سوى أمها، الأب مات، فلا أخ ولا عم يحكمها.

يغضب سمير أحيانا إذا مازحت أحد الأطباء الشبان، فيحدثها في عتاب، فتلوي رقبتها غاضبة ولا تحدثه. يلح في إرضائها، وتتظاهر بالتثاقل، حتى تلحظ الممرضات زميلاتها هذا، والموظفون زملاؤه كذلك، ولا يملك إلا الرضوخ لها والاعتذار إليها.

تقول بعض زميلاتها:

- حرام عليكِ، تعاقبينه لأنه يحبك؟!

تحس بالكبرياء، فتتمادى في معاملتها السيئة له.

كانت تمني نفسها من وقت لآخر بأنه سوف يأتي اليوم الذي تنهي علاقتها به، دون أن تحس بالندم، أو الأسى. نعم، أن تقابل رمضان الذي كان يسكن الدور الأرضي في بيتهم، وهو أعزب لم يزل؛ فيخطبها، أو تقابل طبيب من عائلة كبيرة، يمتلك سيارة غالية، فيعشقها ويتزوجها.

لقد فكرت رسمية في الدكتور عبدالحكم، الريفي الذي يعشق هانم التومرجية، من الممكن أن تغويه، وأن تنسيه الممرضات اللاتي يُقبلْهن في حجرة الإفاقة، وتنسيه هانم العاملة، لكن هو لم يلتفت إليها، ربما يخشى سمير خطيبها، وربما يظن إنها لن ترضى به.

ضحكت معه ضحكتها المشهورة، ابتسم لها، ومد يده نحو كتفها وقال كلماته العادية عن احتياج المريض لكذا وكذا، ثم انصرف كأن شيئا لم يكن، حتى عبد الحكم لا يرضى بها!

يتحمل إهانات تومرجية ولا يهتم بغزلها هي، لذلك فرحت عندما علمت أن ورديتها في غرفة الإفاقة ستكون معه في المساء.

استعدت لهذا اللقاء، استحمت، وعطرت جسدها كله، وبالغت في رسم عينيها بالكحل الذي تجيد أمها صنعه. ورسمت شفتيها، ودهنت وجهها كله. لابد أن تجعله يهواها ويخضع لها، ستخلع نظارتها ليرى جمال عينيها، قالت أمها:

- ذاهبة إلى العمل، أم للقاء سمير خطيبك؟!

قالت في استخفاف:

- سمير، من؟!

صاحت المرأة:

- رسمية، أتعودين للعبك؟!

لكنها أسرعت وأصلحت ما أفسدت، قالت:

- سيقيم المستشفى حفلا الليلة؛ بمناسبة يوم التمريض العالمي.

اقتنعت المرأة وذهبت هي بصورتها هذه إلى المستشفى.

***

وضع خليل يده فوق المائدة، ربما تمد مديحة يدها هي الأخرى – وتلمس يده، لكنها لم تفعل. كانت خجلى – حكت عن زوج أختها، وكيف ظل يتابعها من النافذة حتى جاء وخطبها، قال:

- لم يقابلها قبل الخطوبة؟

قالت متلعثمة:

- لست أدري.

لكنها عادت لتحكي له عن الهدايا التي كان يجيئ بها لها أيام الخطوبة، وعن حفل الخطوبة، والبدلة التي كانت ترتديها يومها، ولونها، ولون فستان أختها، ثم حفل الزفاف، ثم أطفال أختها الآن، لون عيونهم، وملابسهم وشقاوتهم ونوادرهم.

قال لها:

- لماذا تخفين يديك تحت المائدة؟

- لا أخفيهما.

وضعتهما فوق المائدة، لكن بعيدا عن يديه، مر وقت طويل حتى تجرأت يده ولمست يدها، سعدت هي كثيرا، وعندما أطال في لمس يدها، قالت:

- متى ستأتي لتخطبني؟

- هكذا، دون استعداد؟!

- المهم أن تخطبني.

***

في الصباح، سار حتى محطة مصر، لم يركب أتوبيس **6**. لكن ذهب إلى موقف الترام وقابل عبد المنعم هناك، قال له:

- قابلت مديحة بالأمس.

- خير ما فعلت.

- تريدني أن أخطبها.

- أتظنها تفكر في شيء غير هذا؟!

- والعمل؟!

ضحك عبد المنعم طويلا:

- قلت لك رأيي من قبل. دع مديحة لمن يناسبها.

جاءت الترام، أراد خليل ألا يركبها ويظل يتحدث مع عبد المنعم؛ لكنه أسرع وركب، فأضطر خليل أن يتبعه.

الزحام شديد فلم يستطيعا تكملة الحديث، إلا عندما هبطا من الترام أمام حلقة السمك.

- تريد رأيي يا خليل أفندي؟

- أعرفه، مديحة لا تصلح لي.
- ذلك أمر بديهي، لكن أنا أريد أن أنهي مشاكلك كلها.
- كيف؟
- أبحث عن زوجة جاهزة، حالتها المالية متيسرة، تمتلك شقة و...

قال مقاطعا:

- لا أريد سوى مديحة.
- لو تكررت مقابلاتك لها، الجعافرة قد يقتلونك على باب المستشفى.

قال جملته الأخيرة وهو يضحك. اقتربا من الباب فصمتا.

دخل خليل الحجرة، قدرية تعد الطعام ومديحة تساعدها، قالت قدرية:

- تفضل يا أستاذ خليل.

واكتفت مديحة بالنظر إليه في أسى مما أقلقه.

عندما انفرد بها سألها:

- أراك حزينة، حدث شيء؟
- لا، لكنني آسفة لمقابلتك في الخارج.
- لماذا؟
- لأنك لم تحدثني عن الخطوبة.

ضحك في استخفاف.

***

لقد استطاعت رسمية أن تلفت نظر عبد الحكم إليها.

حجرة الإفاقة ليس بها سوى المخدرين، مرضى بين الحياة والموت، ويمر عبد الحكم بين الأسرة ليرى حالة كل مريض، وهي تتبعه. شعرها يطل من فوق طاقية الممرضات، ونظارتها في جيبها، ستلبسها عندما تحتاج لقراءة شيء.

رداؤها معقود من فوق الصدر ليكشف عن الثديين الناهدين، والكُمان مرفوعان حتى عضديها. وعبد الحكم تؤثر فيه هانم التومرجية التي تتعمد الإنحناء أمامه، فيلهث خلفها، والعرق يتصبب من جبهته، فما باله برسمية الجميلة الشهية؟!

إنه لم يستجب لها أول الأمر، لأنه لم يفهمها، وخشي أن يبدأ هو؛ فتغضب، وهو يعلم أن خطيبها سمير شديد الغيرة عليها. وعبد الحكم ليس في حاجة لمشاكل. فقد حذره المدير عدة مرات من قبل لأفعاله الرعناء مع هانم ومع بعض الممرضات اللاتي يعجز عن ذكر علاقته بهن أمام زملائه لدمامتهن. لكن، هاهي البنت ترمي نفسها عليه، تلتصق به بجوار مريض يلهث، ربما لن يعيش حتى الصباح.

المستشفى صامت، الممرضات الساهرات ينمن في حجراتهن وفوق مكاتبهن، والمرضى نيام، والجو هادئ، وحجرة الإفاقة ليس مسموحا بدخولها لكل من هب ودب.

امتدت يده إليها في ارتعاش، لكنها مدربة على مثل هذه الأشياء. دفعت يده بصدرها حتى جعلتها تلمس حافة السرير، إنها دعوة لعبد الحكم لم تقدمها إليه ممرضة من قبل.

الممرضات الجميلات – مثل رسمية – يهربن منه لرعونته، وأفعاله المفضوحة في المستشفى.

رفع يده، ثم خلع طاقيتها، ابتسمت له، قبلها، ويده تلمس المريض، قبلت يده في تلذذ.

في الصباح دخل أحد العمال – واسمه جاد – الحجرة لينظفها، فوجدهما معا في وضع مخل، يصعب وصفه وشرح ما فيه.

أسرع الرجل دون أن يلحظاه، فقد كان يكرههما معا، فالطبيب أفعاله زادت عن الحد. وهي تتباهى بخلاعتها حتى أمام خطيبها المسكين. لهذا ارتعش جسد جاد كله، وأقسم لأن يخبر رئيسة جهاز التمريض، أو يخبر عبد المنعم – رئيسه المباشر –

ترك الرجل عمله وظل واقفا بجوار باب المستشفى الداخلي.عندما دخلت عواطف – وهي تأتي عادة مبكرا – أسرع إليها:

- يا ريسة، يا ريسة.

قالت في ضجر:

- يا فتاح يا عليم، ماذا بك؟

مرت في الردهة التي يجب أن ينظفها قبل أن تأتي، صاحت:

- لماذا لم تنظف البلاط؟

قبل أن تصرخ فيه كعادتها، صاح:

- لقد رأيت مشهدا جعلني لا أستطيع فعل شيء.

صاحت غاضبة:

- لن أقبل أعذارا، العمل عمل.

ضاق بها، وأحس بأنه سيلقيها فوق الأرض بوجهها النحيل، ويترك المستشفى كله بما فيه، صاح غاضبا:

- أنا دمي حامي، ولا أقبل العوج، لقد رأيت الدكتور عبد الحكم والممرضة رسمية في وضع مخل.

وشرح لها ما رآه. قالت في هدوء شديد:

- أذهب إلى عملك الآن، وتعال إليّ بعد أن تنتهي من التنظيف.

خلعت ملابسها وجسدها كله يرتعش، لقد فاض الكيل من البنت رسمية، إنها لا تهتم بشيء، أما عبد الحكم فهي لا تستطيع معه شيئا، فأمره متروك لمدير المستشفى. لكنها لن تصمت عن هذا أبدا.

عندما دخل مدير المستشفى حجرته، أسرع بعض الأطباء خلفه، ثم دخل خليل لعرض أمر مالي عليه، وجلسوا جميعا حوله. كان الرجل يضحك معهم حين دخلت عواطف بردائها الأبيض الفضفاض، وخلفها جاد. قالت دون أن تحيي أحدا:

- جاد يريد أن يحكي لكم عن مشهد رآه في حجرة الإفاقة.

دهش الجميع لطريقتها، قال المدير لأحد الأطباء:

- من الطبيب المسئول عن حجرة الأفاقة ليلة أمس؟

- عبد الحكم.

فهم الرجل ما تريد قوله، وسألها:

- – والممرضة التي كانت تسهر معه؟

- – رسمية.

لقد أهدر الرجل ما كانت تريد فعله. جعل فورانها يأتي إلى لا شيء.

- اكتبي لي ياعواطف بما حدث.

قالت في تحد:

- بل سيحكي جاد ما شاهده أمامكم جميعا.

- ليس هناد داعٍ لهذا.

لكن طبيبا اشتاق لمعرفة ماحدث فأسرع قائلا لجاد:

- احك يا رجل ما شاهدته.

***

أراد المدير أن يصعد التحقيق للشئون القانونية بمديرية صحة الإسكندرية، وينال عبد الحكم ورسمية ما يستحقان من جزاء، وحتى لو وصل للفصل. لكن أطباء ألحوا عليه بأن يكتفي بمجازاته بخمسة أيام.

وشاع الخبر في المستشفى، أكدت قدرية أن عواطف فعلت هذا وبالغت فيه لأنها معقدة لدمامتها وبقائها عانسا حتى هذا العمر.

لكن آخرين دافعوا عنها، وقالو إن عبد الحكم ورسمية يستحقان أكثر من هذا لاستهتارهما المتكرر.

ووصل الخبر لسمير عبدالغفار، أغمى عليه في مخزنه، فحملوه إلى الإستقبال، وأوصى الطبيب بحمله إلى البيت وألا يأتي للعمل أسبوعا بأكمله، حتى يرتاح نفسيا من الصدمة.

وشاع الخبر في الحي أيضا، فحيهم قريب من المستشفى وممرضات وعمال كثيرون ممن يعملون في المستشفى، يسكنون الحي.

صرخت أمها وقالت:

- كان قلبي حاسس وأنت تفرطين في التجميل.

جاء خالها من سيدي بشر وضربها، وأقسم ألا تذهب للمستشفى ثانية. لكن بعد أن عاد إلى مسكنه؛ تعاملت الأم معها على أساس أن تعود لعملها، فليس هناك أمل سواه، فمن أين ستعيشان، ودخلها من إيجار البيوت القليلة لم يعد يكفي طموح رسمية الدائم.

ذهبت الأم إلى أم سمير لتؤكد لها إن ما يقال عن ابنتها ليس إلا محض افتراء، وإدعاء كاذب، لكن أم سمير قالت:

- بعد هذه الفضيحة، لو ابني تزوج ابنتك، سأتبرأ منه العمر كله.

وعادت المرأة كسيفة، قالت لابنتها:

- حتى سمير الذي كنت تتكبرين عليه، لا يريدك الان.

راود الفتاة أمل أن يأتي عبد الحكم ليخطبها بعد ما حدث بسببه، وتكون بذلك حققت ما تمنته، لكنها عادت إلى المستشفى بعد يومين غابتهما بدون إذن. اكتشفت أن المدير قد أقنع عبد الحكم بتقديم طلب نقل لمستشفى آخر، ليبدأ حياته العملية بصورة جديدة ونقية، على أن يلغي الخصم الذي وقعه عليه.

بعد أن عاد سمير للمستشفى، أكد للجميع إن هذا الحادث قد أزال كل حب لها في قلبه. وأن لو انطبقت السماء على الأرض، لن يرجع إليها أبدا. فكفاه ما ناله منها، وأكد البعض على قوله.

لكن عبد المنعم قال لخليل وهما ذاهبان للترام:

- لا تصدقه، لو جاءته رسمية، سيخضع لها من جديد، وسينسى كل ما حدث.

وحدث ما توقعه عبد المنعم، فدون أن يدري أحد كيف تم هذا؛ أعلن سمير إن حفل زفافه على رسمية الخميس القادم في مسرح الأنفوشي. قال هذا للذين كان يؤكد لهم رفضه للعودة إليها.

قابلت رسمية سمير وهو عائد من المستشفى، بكت أمامه، وأقسمت أن ذلك لم يحدث، وإنما عواطف هي التي صنعت كل هذا، أعطت نقودا لجاد لكي يدعي عليها، ويقول ما قاله.

يعرف سمير أن عواطف لم تكذب وأن جاد ليس بينه وبين رسمية ما يجعله يدعي عليها، رغم هذا ضعف، وأدعى إنه صدقها، وكان لابد من لم

الموضوع وانهائه، فألحت أمها عليها بأن يتزوجها في أقرب وقت، ولو في بيتهم مع أمه. لكن أمه عارضت بشدة، فهي لا توافق على الزواج من أساسه، فكيف تقبل تلك الداعرة في بيتها، فاضطرت أم رسمية أن تعد لهما سكنا في شقتها، خاصة أنها تعيش فيها وحدها، ووافق سمير، فالمهم أن يتزوج رسمية.

***

في مسرح الأنفوشي، ظلت مديحة تنظر إلى الباب في لهفة، لترى خليل، فهي لم توافق على مقابلته ثانية خارج المستشفى، فضيحة رسمية جعلتها تخاف، خاصة أن أباها بعد أن علم بما حدث، ركبه ألف عفريت وكان عصبيا معها، وسألها بإلحاح إلى أين تذهب وأحيانا كان يرفض خروجها بعد الظهر وحدها.

ودخل عبد المنعم – وهو يرتدي بدلة شيك أهداها له أحد الأطباء – ومعه خليل، كما توقعت مديحة.

كانت تجلس وسط الممرضات بفستانها الجديد، لوحت لقدرية التي تجلس بعيدا بجوار زوجها وأطفالها.من بعيد.

أقترب خليل وعبد المنعم منهن، هبت مديحة سعيدة، لامست يدها يد خليل، ضحك عبدالمنعم، قال له بعد أن ابتعدا:

- البنت مازال عندها أمل.

لم يجبه خليل، فلقد مل الحديث في ذلك الموضوع، البنت لا سيرة لها إلا الخطوبة، كما أنها في لقائه الأول معها كانت ساذج ومملة.

سمير عبد الغفار فرح، يسير وسط زملائه كالطاووس، يعانق البعض، ويقبل البعض. ورسمية تنظر إلى زميلاتها في علياء، جسدها مندس في رداء ضيق، كأنها سمكة يغطيها القشر.

لقد انتهى أمر رسمية بأن تزوجت سمير صاحب المؤهل المتوسط والراتب القليل، حتى الشقة لم يستطع الحصول عليها.

سار خليل وعبد المنعم خارج المسرح، جلسا على حافة الكورنيش، اشترى خليل ذرة مشوية، قال عبد المنعم:

- إنني سعيد لأنك صرفت نظر عن موضوع مديحة.

لم يجبه، فأكمل:

- لقد فكرت في أمرك طويلا، فوجدت الأنسب لك أن تتزوج عواطف.

- من عواطف هذه؟

- رئيسة جهاز التمريض.

ضحك طويلا:

- عندك حق، الأمر وصل لحالة مضحكة.

- إنني جاد فيما أقول.

- أنا أتزوج عواطف، إنها مومياء، فستان فوق قوائم خشبية.

- دعك من هذا، فجسدها سيمتلئ بعد الزواج. هكذا هي النساء.

- عبد المنعم، بربك، دعنا من هذا الحديث، فقد مللت ولدي إحساس بأنني سأخرج على المعاش وأنا في حجرتي الصغيرة مع الطلبة.

ضحك عبد المنعم:

- ليتك تفعل هذا، ستتقابل أجيالا كثيرة من الطلبة.

لم يجبه خليل، أخذ يقضم الذرة المشوية في صمت.

- أنت تتعذب مما تراه في المستشفى أمامك، أعرف هذا دون أن تشكو لي، تحسد عبد الحكم.

- أجننت، إنني أصلي الوقت في وقته.

- أعرف، ولهذا أريدك أن تتزوج لتظل كما أنت.

لم يدخلا المسرح ثانية، سارا بجوار البحر، وضع خليل يديه في سترته وشرد طويلا. وعبد المنعم مازال يتحدث عن مشروعه:

- الزواج ليس له صلة بالجمال والقبح، أجدادنا تزوجوا دون أن يروا زوجاتهم، وكانوا يخدعونهم؛ ويغيرون العروس المتفق عليها في ليلة الزفاف. رغم هذا يكملون المشوار وينجبون بل أحبوا زوجاتهم. حتى إن لم تكن الزوجة جميلة، فستعتادها وستحس إنها مثل غيرها، صدقني.

- أرجوك، كف عن هذا الحديث الآن.

***

جلست عواطف أمام خليل، قالت قدرية لها:

- لقد كنتِ السبب في تعجيل زواج رسمية من سمير بفعلتك.

أحست عواطف بالضيق من طريقتها في الحديث:

- كلمة " فعلتك " هذه قبيحة، وكأني أتيت سوءا.

- لا أقصد.

لم تجبها عواطف، أدارت جسدها في عصبية وتحدثت مع خليل في العمل، كانت أكثر جدية من كل مرة.

أحس خليل بالضيق منها، تابع وجهها طويلا، زمت شفتيها الرقيقتين من الغضب. تحدث معها في جدية شديدة هو الآخر. كان جو الحجرة كئيبا، الكل يتحدث همسا.

نسيت عواطف متابعتها لعيني خليل وهي تبحث عن مديحة، ورأس مديحة الملوي نحوه.

أهو الغضب الذي أنساها ذلك. أم أن الموضوع إنتحى منحى آخر، نعم، فهي لم تعد تجد تطورا في العلاقات بينهما. لم يحك لها أحد عن علاقتهما معا، أو أنه سوف يخطبها في القريب.

عندما عادت إلى البيت، وجدت والدها لم يتناول غداءه، رغم أنه يتناوله وحده عادة، فهو مضطر لأكل المسلوق، كما أن الضغط والسكر يفرضان عليه طعاما لا يتناسب مع ابنته. لكن هذه المرة أحس برغبة في أن يأكل معها.

حكت له عن تطورات موضوع رسمية وسمير، وكانت قد حكت له من قبل عما حدث، قالت له: إن البعض غاضب مني لأني أفشيت سرهما.

قال لها:

- دعيك منهم، ألست راضية عما فعلت؟

- كل الرضا.

- هذا هو المهم.

لم تعد تحكي له عن تطورات العلاقة بين خليل ومديحة، أرادت أن تقول له إنه لم تحدث تطورات جديدة، كما كانت تتوقع، لكن أحست أن الموضوع بهذا الشكل لا يستحق أن تذكره لوالدها.

***

أحست عواطف أن عبد المنعم يمر أمام حجرتها ويبتسم، ثم يحييها ويسير. قالت لنفسها: لابد أنه يريد شيئا.

الكل – في المستشفى – يعلم أن راتبه صغير وأولاده كثار وفي حاجة لمساعدة، لهذا يعطونه دون أن يطلب. أخرجت مبلغا من حقيبتها، وضعته في الدرج حتى إذا جاء ثانية دسته في يده وهي تصافحه كعادتها.

لكن عبد المنعم دخل هذه المرة وجلس، أخرجت النقود وأعطتها له، ابتسم، ووضعها في جيب قميصه ولم يخرج، قال:

- أريد أن أعرض عليكِ عرضا، واخشى أن أغضبك.

- ماذا تريد؟

- ما رأيك في خليل أفندي؟

ارتبكت أول الأمر، ظنت أن خليل يريد أن يتزوجها، لهذا أرسله ليعرف رأيها. ثم اندهشت بعد ذلك. فهي تجلس أمام خليل بالساعات، فلم تلحظ عليه أدنى اهتمام بها.

- إنه شاب طيب، لكن ما شأني بهذا؟!

- ما رأيك فيه كزوج؟

- تقصد إنه يريد أن يتزوجني؟

- هو لم يطلب، لكن أستطيع أن أؤثر عليه، فيطلبك.

دهشت من صفاقته، ماذا يريد منها، لقد أعطته مالا، أيريد أكثر؟!

- أنا مندهشة من طريقتك في الحديث، كيف تصل بك الجرأة لتقول هذا أمامي؟!

- اهدئي قليلا، إنه صديقي الوحيد، وأحبه، وأريد مصلحته، ومصلحته معك أنتِ.

- تسعده بعيدا عني.

ثم قامت في عصبية:

- تفضل، إن كنت تباسطت معك في الحديث؛ فليس معناه أنني....

- كفى، كفى، فكري جيدا في ذلك الموضوع.

- صرخت فيه:

- اخرج، اخرج.

أسرع إلى الخارج، لم يجد أحدا قريبا من حجرتها، وإلا أسرعوا على صوتها العالي – ليسألوا عن سبب ثورتها.

لكنه كان راضيا عما فعل، فهو يعرفها جيدا، تتوق للزواج، حتى لو دفعت من ثروتها الكثير، وخليل زوج مناسب جدا لها، ريفي لم يجرب النساء الجميلات، لم يعاكس سوى مديحة في جلسة حب بريئة انتهت بالفشل. لم يقبل في حياته امرأة سوى أمه، لن يحس بأن عواطف شيء مختلف عن باقي النساء.

اقترب من خليل وهو يجلس فوق مكتبه، همس في أذنه قائلا:

- حدثت عواطف عنك.

نظر خليل إلى مديحة المنشغلة بتجميع كشف أمامها، وقدرية تكتب مذكرة.

- ماذا قلت لها؟

- سألتها إن كانت توافق عليك كزوج، أم لا.

- لولا أننا في العمل، لقمت وضربتك.

- إنني أعمل لمصلحتك، أيكون هذا جزائي؟!

قال جملته الأخيرة بصوت مرتفع وهو يضحك ويخترق الحجرة، نظرت المرأة والفتاة إليه وابتسمتا، ظنتاه يمزح كعادته.

أسرع خليل خلفه:

- عبد المنعم، أنا لا أسمح بالتدخل في شئوني الخاصة بهذه الطريقة.

- شئونك هي شئوني، وأنا أدرى منك بالحياة.

- تريدأن تقتلني كمدا بأفكارك الغريبة.

امتلأت الردهة الكبيرة بالأطباء والممرضات الذاهبين إلى أعمالهم فلم يستطع خليل أن يستمر في ثورته، عاد إلى مكتبه حزينا.

أخذ يقضم أظفاره في أسى.

قبل الثانية بقليل بحث عبد المنعم عنه، ليذهبا معا – ككل يوم – لم يجده.

(5)

عادت رسمية إلى المستشفى بعد إجازة الزواج. بالغت في إظهار جمالها وسعادتها، ضحكت ضحكتها المشهورة في الردهة الكبيرة، أخذت تثني على الزواج وما فيه من سعادة وجمال، حتى احمرت وجوه البنات اللاتي لم يجربنه، ضربتها قدرية على كتفها في خجل: عيب يا بنت، الفتيات أحمر وجوههن خجلا.

وقالت أخرى:

- داري على شمعتك، ليست المستشفى كلها تريد الخير لك، فقد تحسدك تعيسة في حياتها الزوجية.

وظهر سمير عبدالغفار في بذلة جديدة غير التي رأوها عليه في الحفل، أخذ يقفز من مكان لآخر. يحدث الأطباء ضاحكا، ويداعب الممرضات متمنيا لهن زواجا سعيدا مثل زواجه.

وعندما رأى عواطف، أسرع نحوها، صافحها، قالت له:

- آسفة، لم أستطع حضور حفل الزفاف.

وجاءت رسمية إليها. صافحتها، حاولت أن تبدي سعادتها مع سمير أمامها، داعبته، فتضايقت عواطف وأسرعت إلى مكتبها.

***

لم تكن رسمية سعيدة في زواجها رغم إنه لم يمر عليه سوى أيام معدودات. فالعيش في نفس الشقة التي ولدت وعاشت فيها، يسبب الملل والضيق. كما أن أمها لا تترك الشقة، فقد أقعدها السمنة وجعلتها تتحرك بصعوبة، فأصبح حديث رسمية وضحكها مع سمير همسا، خاصة أن المرأة تجلس على كنبتها في وسط الشقة، بين حجرة نومها ودورة المياه.

فعند خروجهما من حجرة النوم، لابد أن يمرا أمامها.

قالت رسمية لسمير بعد أيام قلائل:

- لابد أن تبحث عن شقة، أكاد أختنق.

- عندك حق، إنني أخجل من وجود أمك الدائم في الصالة.

أحست الأم بما يعانيان، لكنها لا تملك من أجلهما شيئا. وكفى تضحيتها من أجلهما، فقد جاءا ليضيقا عليها الشقة الصغيرة.

أوصتها أمها بالأمس – بأن تظهر أمام زميلاتها بإنها سعيدة في ذلك الزواج.

- إياك أن تشتكي لأحد من شيء.

ونفذت رسمية وصية أمها، أظهرت عكس ما تحس، وأدى هذا إلى زيادة عذابها، فهي لا تطيق سمير، وتمنت لو لم تتزوجه، رغم كل ما حدث. تمنت لو كانت نقلت من المستشفى مثل عبد الحكم، فربما كانت ستجد هناك من تبحث عنه.

بكت عواطف كثيرا،عيناها الذابلتان احمرتا، أحس أبوها بها، شدها إليه، قبلها:

- ما الذي يشقيكِ؟

لم تحك له عما فعله عبد المنعم معها، لكن في اليوم التالي حكت له عن خليل، عن سكنه في حجرة من حجرات الطلبة التي تشبه الزنازين، وعن لهجته الريفية، وقوته التي تحكي المستشفى عنها، وعن طيبته.

- تصور، عندما عمل في المستشفى ضحك عليه عبد المنعم، أكل سندوتشاته، وأفهمه أن اللانشون به لحم خنزير.

حكت لأبيها عن حب خليل الفاشل لمديحة، تذكر والدها حكاية مديحة ورئيسها الذي يتابعها، فقال لابنته:

- لقد حكيت لي جزءا من هذه القصة منذ شهور.

أرادت أن تقول إن هناك مشروعا للزواج منه، مؤامرة يدبرها عبد المنعم ، وستدفع له أتعابها، لكي يؤثر عليه ليتزوجها.

أحست بالضيق لأنها كانت تتابع علاقته بمديحة باهتمام وشغف. وتمنت أن ينتهي الموضوع بالزواج؛ ليصدق حدسها، كيف فكرت في هذا، لو كان تزوج مديحة، أكان يأتي عبد المنعم ليعرض عليها هذا العرض؟! فكرت فيه رغما عنها، شفتاه الكبيرتان تتحدثان كالهمس، أنفه المفلطح وشاربه الكث، وقميصه ذو الياقة العريضة، التي يظهر منها شعر صدره الكثيف. أرادت أن تنام لكن النوم عاندها وتأخر كثيرا.

في الصباح تأكدت من أن شعرها ليس مهوشا، وأن خديها قد أحمرا بفعل المساحيق، وأن الحذاء العالي قد رفعها قليلا.

دخلت بهو المستشفى الكبير، وهي ترتعش، بحثت عن خليل، قالت:

- صباح الخير يا أستاذ خليل.

نعم، حيته هو دون غيره في الحجرة، مما جعل الجميع يتساءل عما حدث، حيته ودقت بحذائها العالي بلاط الردهة الطويلة.

قال هو لمديحة وقدرية:

- انتهينا من عمل كشوف هذا الشهر، فماذا تريد مني؟

تلكأت عواطف في ارتداء معطفها الأبيض، ماذا سيحدث لو ظلت بفستانها هذا؟!

دخلت حجرة عبد المنعم، نظرت إلى البهو الكبير، لم تجد أحدا يتابعها فقالت:

- لقد فكرت فيما قلت لي.

- ووافقتِ؟

- نعم، وسأدفع لك أتعابك – جزءا الآن، والباقي بعد إتمام العملية.

وضعت النقود على مكتبه، أخذها فرحا، ثم قال:

- لا أريد نقودا، كل ما أريده هو سعادتك وسعادته.

أحست بفقدان التوازن وهي تسير عائدة لحجرتها، ما الذي حدث لها؛ أجنت حتى تفعل في نفسها هذا؟!

رأت رسمية تشد ثوبها الضيق حول جسدها الرائع، وتنظر إليها في استخفاف، تمنت لو أوقفتها وصفعتها، ويحدث ما يحدث، لكنها أحست بالعجز. أول مرة تحس بأنها أقل من تلك المرأة اللعوب، لقد كانت تحتقرها لتصرفاتها الرعناء الآن تحس بأنها غير قادرة على الهجوم، كبرياؤها الذي كان يدفعها لاحتقار رسمية، ومن على شاكلتها، لم يعد موجودا.

أسرعت إلى حجرتها في عصبية، ليتها لم تأت اليوم، حتى لا تقابل عبد المنعم وتعقد معه هذه الصفقة المشبوهة.

***

وضع عبد المنعم يده في ذراع خليل، قال:

- ماذا ترى لو سرنا معا حتى المنشية، ونركب الأتوبيس من هناك؟

يعرف خليل أنه لا يحب المشي، فلابد أن في الأمر شيئا.

سارا معا، قال عبد المنعم:

- الزواج، زاد من جمال رسمية.

لم يجبه خليل، فأنوثة رسمية الطاغي؛ تذكره بالشاب الريفي المتدين الذي قطع ذكره خوفا من الفتنة. لم يذكر الخبر قرية هذا الشاب، من الممكن أن يكون من قرية قريبة جدا من قريتهم، كما اتضح أن عبد الحكم من قرية قريبة لدمنهور – بلده –

قال خليل:

- أحيانا، أحسد حامد عامل البوفيه.

ضحك عبد المنعم:

- وما الذي يمنعك؟!

لم يجد خليل ردا – أحس بأن حياته المرتبكة، قد تؤدي به يوما إلى عمل مثل هذا.

قال عبد المنعم:

- الغريب في الأمر أن حامد عندما عمل في المستشفى كان يهتم بالممرضات، ويعرض الحب عليهن، وأن يقابلهن خارج المستشفى، وكان يقدم لهانم – التومرجية – الطلبات دون مقابل لكي توافق على مرافقته، وشاع في المستشفى إنه زير نساء، حتى عمل سمير عبد الغفار أمينا للمخازن – وعلم بما يحدث، فضحك بصوت مرتفع، وحكى لنا حكايته – فهو يسكن قريبا منه. وعندما وصل الخبر لهانم التومرجية، قالت في هدوء شديد:

- أعرف هذا من قبل، فقد تأكدت بنفسي.

سارا بعيدا عن محطة الأتوبيس، قال عبد المنعم فجأة:

- ألم تلاحظ أن عواطف بدأت تهتم بنفسها هذه الأيام؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنها ترغب في الزواج منك.

- أنت الذي وجهتها هذه الوجهة.

- وما شأني بأمور مثل هذه؟!

- من أجل المال تفعل أي شيء.

كان خليل غاضبا، وعبد المنعم يتظاهر بالغضب لقوله:

- لقد أسفت لأنني سرت معك كل هذا المشوار، لو كنت أعلم إنك ستهينني هكذا، لـــ.....

يعرف خليل إنه يتظاهر بالغضب وإنه لا يتأثر بمثل هذه الكلمات، خاصة إذا كان غضبه سيعيقه عن الوصول لغاية يريدها.

سارا معا دون قول، ثم قال عبد المنعم فجأة:

- لم أكن أظن أنك ستقول عني ما قلت، وأنت تعلم أن سعادتك هي غايتي.

- سعادتي أن تزوجني عواطف؟!

- نعم، هي الوحيدة في المستشفى التي تصلح لك. مال وشقة كبيرة وواسعة تحت أمرك.

- أرجوك، دعنا من هذا الحديث.

حاول أن يتحدث عبد المنعم داخل الأتوبيس في نفس الموضوع، لكن خليل أسرع ووقف بعيداعنه.

***

لأول مرة يجد دكان عطيه مغلقا، فالرجل لم يأخذ إجازة قط.

قبل العيدين يقف ولد من الطلبة المقربين إليه؛ مكانه في الدكان، إلى أن يعود، يكون معلوما للطلبة إن عطية ذهب إلى بيت أخته ليستحم. ويأتي مرتديا قفطانا نظيفا.

وتأكد للجميع أن غلق دكانه في النهار، معناه إنه مات، لهذا شعر خليل بانقباض، وردد: ربنا يستر.

أول ما فعله خليل بعد أن وصل للسطح، أن سأل عن عطية البقال، قال له طالب من المقربين إليه:

- لن تصدق ماحدث.
- ماذا، مات؟
- موته لا يثير الدهشة هكذا، عطية تزوج.

ضحك الجميع:

- تزوج من؟
- رتيبة التي تعمل خادمة في البيت المجاور للبترينة.

وهي امرأة في منتصف الأربعين تقريبا – كانت تكثر من الوقوف بجوار عطية في الدكان، تحدثه، وتمازحه.

أغلق خليل باب حجرته.

- حتى عطية البقال تزوج!

زواج عطية كان ملازما لحديث عبد المنعم عن الزواج. نعم، لابد أن يتخذ موقفا، وإلا وجد نفسه فجأة وقد تزوج عواطف.

الطلبة يصنعون ضجيجا حوله، أغلق نافذة حجرته المطلة على الجانب الآخر من السطح. لكن الصوت مازال يأتيه رغم ذلك، ولد يغني بصوت قبيح. وآخر يدق على صفيحة فارغة. والبعض يصفق.

كان في مثل هذه الحالات يخرج إليهم، فيكفون عما يفعلون، لكنه الآن غير راغب في أن يكون موجودا بينهم.

أرسل إليه صاحب البيت أكثر من مرة، لكي يطالب الأولاد الذين لم يسددوا الإيجار للآن، وهو يتكاسل، يقابل الطالب الذي لم يسدد الإيجار، ويتذكر كل شيء، لكنه لا يحدثه في ذلك.

إن فشل في أمر الزواج، سيسافر إلى دمنهور، وإلا جن هنا في الإسكندرية.

حاول أن يصحو مبكرا، ليقابل مديحة في المكتب قبل أن يأتي أحد. لكن لحظه السيئ استيقظ متأخرا، دخل الحجرة فإذ بقدرية تنظر إليه بوجهها الممتلئ، وعدد من العمال يقفون أمامها، يسألون عن المبالغ المستقطعة من أجورهم. نظر إلى مديحة، وجدها مشغولة بعملها، أراد أن يذهب إليها، لكنها لم تعره اهتماما. أضطر أن يسير حتى مكتبها ويهمس إليها:

- أريد أن أقابل والدك.

ضحكت، ابتهجت:

- والدي يعمل في المطبخ الآن.

- لا، لن أحدثه في هذا سوى في البيت.

فرحت، انتظرت حتى خرج العمال وحكت لقدرية عما حدث.

***

قالت لأمها إن رئيسها في العمل سيأتي لخطبتها اليوم.

أسرعت المرأة إلى جيرانها، أخبرتهن فرحة، ساهمت أكثر من امرأة في كنس البيت ومسح بلاطه من أول باب البيت حتى الشقة التي تسكنها مديحة. وذلك لا يحدث إلا قبل العيدين، والمناسبات المهمة. مثل ذلك الذي سيحدث اليوم.

وأصرت أمها بأن يقوم زوجها بخلع لباس المستشفى الذي يبقى به في البيت، وينام به، ولا يخلعه إلا حين يستحم، أو إذا ألحت زوجته في أن البذلة اتسخت وفي حاجة لغسيل.

جلس الرجل بقفطانه الأبيض فوق الكنبة؛ منتظرا خليل أفندي الذي يريد أن يكون صهره.

جاءت فتاة مخطوبة – تسكن الشقة العليا لتشرف على تجميل مديحة، وضعت وردة حمراء في شعرها الطويل الذي أثنى خليل عليه أمام الكثير في المستشفى.

وجاء خليل، قابله والدها الذي يعرفه ويقابله في المستشفى كثيرا، والذي كان يصر على الوقوف كلما تحدث معه.

أحس إنه رجل آخر غير الذي يراه في المطبخ رابطا مريلة المطبخ في رقبته. تحدثا في أشياء كثيرة، عن المستشفى والطقس؛ ثم بعض الأحداث العالمية ليظهر أمام خليل إنه مثقف ويعرف قراءة الجرائد.

وأم مديحة تغلي في الخارج لأن الرجل لم يحدثه للآن عن شروطهم في الزواج، فمادام يحبها كل هذا الحب، ويأتي على " ملأ وجهه " فلابد أنه سيحقق ما يريدونه، خاصة إنه رئيسها وراتبه كبير، وربما أسرته غنية أيضا.

حكى الرجل عن حياته، أقاربه الجعافرة الذين يعملون في الصيد، عمل معهم في صباه، كان يشد " جرافة السمك " على الشط. ويشترك معهم في دخول البحر، لكن أكثر من صياد مات أمامه، غرقوا في البحر، كانوا يقفون على الشواطئ في انتظار أن يرمي البحر بجثثهم، وتصبح أسرهم بلا عائل، ولا يجدون شيئا، لا معاش ولا مكافأة ولا أي شيء. لهذا أصر على أن يعمل في الحكومة، حيث الأمان، راتب شهري، وإذا مرض، أو أصيب؛ يحصل على العلاج والأجر أيضا. لقد أصبح بعض الذين بدأوا العمل معه في البحر تجارا كبارا، لكنه غير نادم، فكل واحد ورزقه.

والزوجة في الخارج تلعن الزوج وغباءه، هل هذا وقت حكايات عن الصيادين، من نجح ومن اغتنى، ومن غرق ومن مات؟! كادت تدخل وتجلس بينهما لتقول ما تريد. لولا أن بدأ خليل في الحديث. قال: إنه يريد أن يقترن بمديحة بعد أن أعجب بأخلاقها.

رحب الرجل وفاض في مدح خليل، ثم قال:

- رحم الله امرأ عرف قدر نفسه، يا خليل أفندي، الذي أوله شرط، آخره نور، كما تعلم؛ حالنا على قدنا، والفقر ليس عيبا، وما عيب إلا العيب.

قالت مديحة لأمها – خارج الحجرة –

- أكان يجب أن يقول أبي كل هذا؟!

- اصمتي يا بنت، الرجل وقع في حبك، ولهذا سوف يجيب على كل ما نطلبه منه.

- أنا يا خليل أفندي – ولا تؤاخذني – لا أستطيع أن أقدم مليما لابنتي. يكفي أنني سأحرم من راتبها الذي يعينني على تربية أخوتها الصغار.

- ذلك الحديث سابق لأوانه، المهم الموافقة وسنناقش هذه الأشياء بعد ذلك.

الرجل أوصته زوجته بأن يقطع عرقا ويسيح دما. ولابد أن ينتهي من ذلك الأمر الآن، لهذا قال:

- لا يا خليل أفندي – لابد من الاتفاق من الآن، فأنت زميلي في العمل – وأي مشاكل بيننا بعد ذلك – لا قدر الله – ستؤثر على علاقتنا هناك.

قال خليل وقد نفد صبره:

- وماذا تريد؟

- ابنتي ستخل عليك بملابسها.

- وأنا لا أريد أكثر من ذلك.

أحس خليل بالضيق وتمنى لو قال له " لا أريدها ولا أريد ملابسها " فالرجل كان ثقيلا ومملا. وهو أراد فقط أن يهرب من الكابوس المسمى " عواطف " الذي يطارده في كل مكان، حتى تحت غطائه وهو نائم.

أحس بالراحة عندما خرج من البيت، شيعه الرجل حتى آخر الحارة، وأطلت المرأة من نافذتها، تتابعهما وتهمس لجارتها التي تزاحمها النافذة الضيقة.

***

كان واضحا للجميع – حتى لمدير المستشفى أن عواطف قد تغيرت، وشعرها المجعد الذي كانت لا تهتم بلمه، بدا لامعا ومنظما، وملابسها بدت أكثر أناقة، حتى معطفها الأبيض القديم، رمته ولبست غيره، بعد أن حبكته على جسدها، كما تفعل البنت رسمية، والمساحيق غيرت وجهها؛ أزالت عنه الاصفرار والذبول. والكعب العالي الذي تلبسه حتى وقت العمل، رفعها قليلا فبدت أكثر طولا.

وبعد أن كانت تقضي معظم وقتها في الدور العلوي – حيث حجرتها القريبة من سكن الممرضات – تواجدت كثيرا في الدور الأرضي. من مكتب المدير إلى حجرة المراقب المالي؛ خليل أفندي، إلى بعض المكاتب الأخرى.

ذلك سبب ارتياحا للممرضات، فلم تعد تلاحقهن بأوامرها وانتقاداتها التي لا تنتهي.

الوحيد الذي فهم سبب هذا التغيير هو عبد المنعم، وحدثها في ذلك دون خجل ودون مواربة:

- ما تفعلينه سيسهل مأموريتنا.

قالت في حدة:

- ما الذي أفعله؟!

أشار إلى وجهها وجسدها:

- المساحيق والملابس الجديدة؟

- عبد المنعم، لا تتعد حدودك، أنا أحذرك.

- دعيك من الحدة، فمصلحتنا واحدة.

تركته غاضبة، ودقت بلاط الردهة الكبيرة بحذائها العالي في عصبية وعنف.

لم يضيع عبد المنعم وقته، فذهب فورا إلى خليل، كانت مديحة واقفة وآثار تجميل الأمس واضح عليها. وقدرية تحاول أن تخفف من إحساسها بالاحباط، وتؤكد لها أن خليل سيوافق على شروط أبيها كلها.

قال عبد المنعم:

- أريدك خارج الحجرة.

- قل ما تريد هنا.

- لا أريد أن يسمعني أحد.

قام خليل، فقد أحس بإنه في حاجة إلى عبد المنعم، بعد لقائه بعائلة مديحة بالأمس. وإنه بدونه لا يستطيع التصرف وحده.

جلسا في الكافتيريا، قدم حامد المشروبات لهما.

- والد مديحة كان يحكي في المطبخ عن الشروط القاسية التي اشترطها عليك.

- آه.

لم يجبه خليل بأكثر من الــ (الآه) أحس بالندم لأنه ذهب بيت مديحة.

- ماذا ستفعل؟

- إنني لا أعرف ما أريد، من الممكن أن أعطي مديحة ما يريده أبوها، لكن جلوسي في بيتهم جعلني أرفض الزواج من أصله، أحسست بهذا قبل أن يقول الرجل شيئا، ولولا أني أخبرت مديحي بقدومي إليهم، ما كنت طلبت من الرجل شيئا، كنت سأشرب الشاي دون الحديث في أمر الزواج.

- قدر إنك أحببتها فعلا، فكيف ستتزوجها وأنت لا تملك شيئا.

- دعك من هذا.

- لا، لابد أن تتزوج، وليس أمامك سوى عواطف، ألم تلحظ اهتمامها بنفسها هذه الأيام؟

- لا أريد أن أراها.

- إنها لن تكلفك شيئا، الشقة والأثاث وكل شيء على حسابها.

لم يجبه خليل، كان يتابع حامد – عامل البوفيه – المتجهم دائما.

- وكذلك أبوها، كان يشغل منصبا مهما، سيعينك بلا شك، أم تريد أن تصاهر تومرجي؟!

أمسك خليل ذراعه:

- بربك، أسكت الآن.

(6)

بدت رسمية حزينة، لم تعد تجري خلف زميلاتها الممرضات ضاحكة، ولم يعد أحد يسمع ضحكتها الطويلة، ملت من إظهار السعادة، وهي تحس بالتعاسة.

يصعد سمير إلى سكن الممرضات؛ عندما تكون سهرانة، تقابله في وجوم. يسترضيها، تصرخ فيه أمام الجميع. تسألها زميلاتها عن سبب ذلك، تقول:

- مللت الحياة معه، لم يضف جديدا لحياتي، نفس الشقة، ونفس الأثاث، لم يضف إلى حياتي سوى الأسى من وجوده بجواري.

- والحل؟

لا تجيبهم بشيء – تبتعد عنهن، تشرد بعيدا: لابد أن يجد لها شقة، بعيدة عن حيهم الذي يعرف حكايتها مع الطبيب الذي ترك الحي عندما كاد يتخرج من الكلية، ويعرف حكاية خميس ابن اللبان الذي طردها من دكانه ورمى نقودها التي ستشترى بها الجبن واللبن.

تريد حياة جديدة، وسمير لا يمتلك سوى راتبه القليل.

تأتيها أخبار عبد الحكم من المستشفى التي نقل إليها، لقد وقع في حبال ممرضة هناك. واستطاعت أن تطويه وتتزوجه، تزوج عبد الحكم ممرضة، بينما هي لم تستطع أن توقع به، بل لم تدم علاقتهما سوى ساعات الليل، وجاءت عواطف لتنهي هذا، وتدمر كل أحلامها.

لم يعد يشغل حليل شيء لا مديحة ولا عواطف، بل أصبح الزواج أمرا سخيفا، لا يجب الخوض فيه.

مر على دكان عطية البقال، الرجل يرتدي قفطانه الأبيض والشبشب. عندما رآه ضمه لصدره فرحا، قال خليل:

- مبروك زواجك.

الرجل يبدو سعيدا، وجهه أحمر، لحيته محلوقه على غير العادة.

قدم عطية له الرسائل التي ترد للطلبة على دكانه، من بينها تلغراف لخليل من خاله:

" أحضر فورا، أمك مريضة جدا "

لم يكن يظن عطية أن التلغراف سيسيئه هكذا.

- ماذا حدث يا خليل أفندي؟

- أمي مريضة.

أسرع خليل إلى البيت، بينما الرجل مازال يحدثه، كان يود أن يحكي له عن زواجه، عن زوجته التي كانت تخدم في البيوت بعد موت زوجها، هو الآن " ستتها " جعلها تعيش في بيته، أمله أن تنجب طفلا، أتستطيع بعد هذا العمر الطويل؟!

جمع خليل أشياءه استعدادا للسفر.

أعطى الرسائل لأصحابها، وقال لهم إنه مضطر للسفر الآن.

التلغراف جاء إلى عطية البقال في الصابح، لو كان يعلم بأهميته لذهب إلى المستشفى وسلمه لخليل.

كما أن خليل تأخر، قضى وقته مع عبد المنعم، يسير من رأس التين إلى المنشية، يتحدثان عن مديحة وعواطف.

استقل السيارة في محطة مصر.

في البلدة أحس بما حدث، أزواج أخواته يتلقون العزاء وخاله أمامهم، بكى قبل أن يصل إليهم:

- لماذا لم تنتظروني؟

- إكرام الميت؛ دفنه.

كان خاله غاضبا منه لأنه لم يصل قبل الدفن. ظنه قد تسلم التلغراف في الصباح ولم يأت.

لقد جاء موت أمه في وقت حرج بالنسبة إليه، حيرته؛ أيتزوج مديحة أم عواطف؟

لقد حلت أمه جزءا من المشكلة بموتها، فقد كان يفكر في أن يترك الإسكندرية لأصحابها ويعيش في دمنهور ويتزوج أي فتاة فيها. أو لا يتزوج. على الأقل يرتاح من مديحة وأسرتها التي تظنه جاموسة سيحلبونها، وعواطف التي تشبه خيال المآتة، وعبد المنعم الذي يطارده بابتسامته وحديثه الهادئ ونصائحه التي لا تنتهي.

***

اتصل خليل بالمستشفى، طلب عبد المنعم وأخبره بما حدث، وطلب منه أن يقدم له على إجازة أسبوع.

جاءته تلغرافات كثيرة من العاملين بالمستشفى، من المدير وبعض الأطباء، وتلغراف من عواطف ومديحة. رغم أن تلغرفيهما قد جاءا وسط عدد كبير من التلغرافات المرسلة من الطبيبات والممرضات؛ إلا أن خليل أهتم أكثر بهما وقرأهما عدة مرات، كأنهما رسالتان خاصتان.

جاءه عبد المنعم في اليوم التالي للوفاة، حاول أن يخفي ابتسامته، لكنه لم يستطع، عندما انفرد به مازحه وحاول أن يضحكه.

***

عندما عاد خليل لعمله، كان جو الحجرة كئيبا، قدرية أدارت مؤشر مذياعها الصغير على إذاعة القرآن الكريم، وتوافد المعزون، وخليل شارد، ومديحة تتابعه في أسى.

وفجأة دخلت عواطف، مازالت ترتدي ملابس الخروج. فستان يصل إلى قدميها، تخفي به نحافة ساقيها، صافحت خليل في أسى، وجلست أمامه هذه المرة ليس معها كشوف الجزاءات، وضعت ساقا فوق ساق، وتحدثت معه عن موت أمها الذي أدماها، وعن حتمية الموت.

نظر عبد المنعم إليها من خارج الحجرة وابتسم، ثم عاد إلى حجرته الصغيرة.

رغم حزن خليل على موت أمه إلا إنه أدرك مدى التغيرات التي حدثت في جسد عواطف، خصلة الشعر تنسدل على جبهتها وترفعها من

وقت لآخر بأصابعها (واضح أنها كوت شعرها لدى الكوافير) فوجئت مديحة بها وهي تتحدث عن أبيها الذي حزن كثيرا لموت أمها:

- أملي يا أستاذ خليل أن تراه، رجل مثقف، يعرف كل شيء عن السياسة والاقتصاد والأدب والفن، كان يكتب الشعر في شبابه، كما لا تنس إنه خرج من الوظيفة بدرجة وكيل وزارة.

لاحظت مديحة إنه رغم أساه – بدأ يتجاوب لحديثها، حكى لها عن رجل في البلدة – قريبة من بعيد – يرتدي البذلة، شكله كشكل البشوات التي ترينهم في السينما، البلدة كلها تخافه، يتحدث في كل الأمور السياسية والزراعية، وكل الفلاحين يستشيرونه في أمور الزراعة. عندما دخلت قدرية بالشاي، أشارت مديحة لها:

- انظري، واسمعي جيدا.

جلست قدرية ثم قالت:

- الذنب ذنب والدك، هو الذي أغضبه، كان من الممكن الحصول على كل ما يريد، لكن ليس بهذه الطريقة الفظة.

عندما تسمعت مديحة، بعد أن انتهت قدرية من حديثها، وجدت عواطف تحكي عن شقيقها الوحيد – عادل – الذي يصغرها في السن. خريج الفنية العسكرية، سافر إلى روسيا فور تخرجه، ولم يعد إلا وفي يديه الدكتوراه في الهندسة، لقد وصل إلى رتبة عقيد الآن.

أمسكت ورقة من فوق مكتبه وأخذت تشرح له طريقة الوصول إلى بيتها، ورسمت خريطة للوصول. لكي يجالس والدها، ذلك العملاق الذي يفهم في كل شيء، والذي كان يجب أن تستفيد الدولة من خبراته.

سوف يذهب إلى والدها لكي يجالسه فقط، يلعب معه طاولة، وشطرنج لو أحب. أو يتحدثان في أمور الدنيا لا شيء آخر غير ذلك.

لابد أن يعرف بعض الناس الكبار في البلد. إنه لا يعرف سوى عطية البقال وعبد المنعم المعاون ومدبولي صاحب البيت، والأولاد الأغراب الذين ينتظرون منحة أهلهم أول كل شهر، ليأكلوا منها عسلا وجبنا وحلاوة عم عطية البقال.

***

قال خليل لعبد المنعم:

- راغب في مقابلة والدها، لكن أخاف أن أتورط، فأنا لا أفكر في الزواج الآن. كل ما أريده أن أعرف ناسا آخرين أتحدث معهم.
- الرجل لن يورطك، بل لن يحدثك عن ابنته أبدا، فأنا أعرفه جيدا، رجل نادر وجوده.
- لكن الخبر سيصل للمستشفى، سيقولون إنني ذهبت لبيت عواطف للخطبة.
- دعك من حساسيتك المفرطة، إنها أسرة كبيرة، ولا يهمها إن كنت ستتزوجها أم لا، ومعرفة مثل هؤلاء الناس؛ كنوز.

***

أحس والدها بالحيرة، فما معنى ما تقوله؟

"سيأتي الأستاذ خليل – زميلي في العمل – لزيارتك" – ما المناسبة، هل يريد أن يخطبها، ربما تقصد هذا وتخجل من ذكره، أو لعله آتٍ لكي يستشيره في أمر يخصه.

أحس الرجل بإنه سيحرجها لو ناقش الموضوع معها. لكن تصرفاتها تعني إنه قادم للخطوبة، فهي منذ أن عادت إلى البيت لم تتناول شيئا، كل همها أن تتزين وتختار الملابس المناسبة، تصيح في الخادمة، وتغضب وتحدث نفسها إذا وجدت شيئا لا يروق لها.

قام الرجل وارتدى بذلة كاملة، يرتديها في المناسبات المهمة جدا، وأمسك عصاه، وجلس في انتظار الأستاذ خليل.

جاء دون هدية كسائر العرسان في هذه المناسبات، كما ان ملابسه عادية. لا توحي بأنه جاء ليخطب. استقبله الرجل بترحاب شديد، أحس أنه خجول، ولا يشي عما به. لهذا كان الرجل يتحدث في كل الأمور حتى يفتح له الطريق للموضوع الذي جاء من أجله.

وجاءت عواطف مرتدية ثوبا لم يره والدها عليها من قبل. يظهر إنها اشترته خصيصا لهذه المناسبة. كان يكشف عن مساحة كبيرة من ظهرها. لم تستح من أبيها، وأسرعت إلى خليل وصافحته في اهتمام شديد. وجلست معهما. وبدأت في إدارة الحديث: احك يا أبي عن مقابلتك لوزير الزراعة قبل الثورة؛ وكيف أفحمته بثقافتك الزراعية وآرائك.

ويحكي والدها عن تلك المناسبة. يذكر أسماء كثيرة لا يعرف خليل عنها شيئا. فهو كان لا يهتم إلا بكتب الدراسة؛ لكي ينجح، وحتى بعد أن نجح. السياسة لا تستهويه، كل قراءاته في الجرائد ومجلات الفن.

مر الوقت دون أن يحس، فقام معتذرا لأنه كان سببا في سهرهما أكثر من المعتاد.

خرج من باب البيت سعيدا، فالرجل – والدها – متزن ووقور، ولديه آلاف الحكايات والتجارب في كل ميادين الحياة.

والد عواطف أحس بالحيرة من خليل هذا – فهو لم يخطب ابنته، ولا حتى اشتكى من شيء جاء ليجد الحل عنده. لكن في قرارة نفسه؛ أحس بالاستئناس به، فهو وابنته لا يخرجان من البيت إلا في النادر، ولا يزورهما أحد، وزيارة خليل لهما قد سلتهما، فليته يأتي كثيرا.

لم تسأل عواطف والدها عن رأيه فيه، أرادت أن يبدأ بإبداء رأيه دون أن تطلب.

ذهبت لتخلع ملابسها، أراد أن يلومها لارتدائها هذا الثوب العاري أمام رجل غريب مثل هذا، لكنه خاف من أن يغضبها.

استأذن منها، وذهب لينام، خاصة أن موعد نومه قد حل منذ أكثر من ساعة.

***

أشاع عبد المنعم الخبر في المستشفى، كل من يقابله يخبره بأن خليل أفندي كان في بيت عواطف بالأمس، وسهر مع والدها سهرة طويلة.

جاءت قدرية تلهث وتشد جسدها الممتلئ؛ قالت لمديحة:

- خليل كان في بيت عواطف بالأمس.

صُدمت مديحة:

- تقصدين، إنه خطبها؟!
- لا، ذهب ليلاعب أبيها عشرة طاولة!
- غريب أمر خليل هذا، أيتزوج عواطف وهي أكبر منه؟!
- لقد خدعنا، ظنناه ساذجا، لكنه خبيث، كل ما يهمه المال.

بكت مديحة، لكن قدرية شدتها من يدها في عنف:

- قومي، لا تظهري ضعفك وحزنك أمامه.

جاءت عواطف بعد قليل، أمسكت الباب بيدها ونظرت إلى خليل في دلال:

- صباح الخير يا أستاذ خليل.

وقف فرحا:

- تفضلي.

دخلت، سارت أمام قدرية ومديحة، لم تهتم بهما، لم تجلس، انحنت على مكتبه، داعبت الأوراق، كتبت بعض الكلمات ثم قالت بصوت مرتفع:

- تركت أثرا حسنا لدى أبي.

- أبوكِ هو الذي يستحق الإعجاب.

استطاع عبد المنعم أن يصور لكل العاملين في المستشفى إن عواطف أصبحت خطيبة لخليل، لهذا، دق تليفون عواطف كثيرا، مستفسرا عن ذلك الخبر، وكانت ترد بدبلوماسية:

- رينا يعمل الخير.

ثم جاءت الممرضات والطبيبات يهنئنها وهي تبتسم قائلة:

- لم يحدث شيئا للآن.

لكن الأمر اختلف مع خليل فعندما وفد الرجال لتهنئته بالخطوبة، أحس أن في الأمر لعبة وعبد المنعم وراءها.

الغريب، إنه لم يغضب، كما كان يتوقع عبد المنعم؛ ظنه سيأتي ليفضحه في المستشفى كلها؛ وكان يعد نفسه لتقبل حدث مثل هذا.

فكر خليل في الأمر، عواطف ليست جميلة، كما إنها أكبر منه في العمر، لكن الزواج منها ليس بمشكلة كما كان يظن. فهي تشبه الكثيرات من نساء بلده، ممصوصات من البلهارسيا والأمراض الأخرى، كما أنها بيضاء وأمه تلح عليه بأن يتزوج بيضاء. وأن يظهر الماء من رقبتها – عندما تشرب، من شدة بياض وصفاء عنقها.

وهو يسير مع عبد المنعم بعد الظهر قال:

- ســـذهب اليوم لمقابلة والد عواطف.

- كالأمس؟

- لا، سأطلب منه يد عواطف.

أخفى عبد المنعم فرحته في قلبه، حتى لا يكتشف خليل أمر الاتفاق والأتعاب التي سيأخذها منها في حالة الزواج.

***

الطلب على عمل الممرضات في البلاد العربية شديد، خاصة في بلاد البترول الغنية. يكثر الحديث عن السفر وعن الأسعار هناك وعن الذين نجحوا في السفر والذين أخفقوا.

وحضور مندوبي أصحاب المستشفيات في البلاد العربية إلى المستشفى؛ يعطي الفرصة لغير الممرضات للعمل أيض. عمال وموظفين.. إلخ. لهذا، وجد سمير عبد الغفار أن الوسيلة الوحيدة التي سيبهي مشاكلع كلها هي أن يسافر إلى بلد غنية؛ ويأتي بمبلغ يستطيع به الحصول على شقة مناسبة، ويبعد عن أم رسمية وأمه، والحي كله.

عرض مندوب المستشفى العربي، مبلغا ليس كبيرا، لكن سمير فرح به، فمنه يستطيع أن يوفر مقدم الشقة ويرتاح مع رسمية إلى الأبد.

عندما أعطاه الرجل العقد ذهب إلى رسمية في سكن الممرضات، لوت رقبتها وأرادت أن تقوم – كعادتها – كلما جاء إلى السكن، لكن عندما رأت العقد، ابتسمت وصاحت فرحة لزميلاتها:

- سمير سيسافر الشهر القادم للسعودية.

ثم قبلته أمامهن فرحة. وخرجت معه من باب المستشفى إلى بيت أمها، وعادت المياه لمجاريها.

(7)

حضر معظم العاملين في المستشفى حفل زفاف عواطف، الذي أقيم بمسرح تابع للقوات المسلحة، استأجره عادل – شقيق عواطف.

فوزي بك – والد عواطف – كان يقف أمام المسرح بقامته الطويلة وجسده النحيل، وبذلته الأنيقة. يبتسم للداخل والخارج. لقد حقق خليل له أعز وأغلى أماني حياته، أن تتزوج عواطف قبل أن يموت. ياه – لقد كاد يفقد الأمل في زواجها.

ماتت أمها دون أن تحضر تلك الليلة. بكت الأم يوم زفاف أبنها الوحيد عادل، قالت: إنها دموع الفرح. بينما كانت دموع الحزن والأسى، من أجل عواطف التي تكبر عادل بسنوات كثيرة.

دخلت أخت خليل الكبرى التي ذهب لدمنهور خصيصا ليحضرها – قال: أنتِ في مقام أمي.

شهقت عندما رأت عواطف، إنها شديدة النحافة، وليس بها ما يدل على إنها أنثى سوى المساحيق التي تخص المرأة دون الرجل، والشعر الكثيف الذي يغطي رأسها تحت الطرحة المتدلية، وذلك الشعر يصنعونه في المدن.

لم تدل المرأة برأيها وقتذاك، ضمت الحزن لصدرها، وعندما انفردت به صاحت:

- اتعميت حتى تتزوج هذه الممصوصة؟!

شدها بعيدا وقال:

- إني أحبها.

- أهناك مجنون يحب امرأة كهذه؟!

عادت المرأة في الصباح إلى دمنهور؛ احتجاجا على ذلك الزواج الذي لا يشرفها ولا يشرف أخيها.

***

التف في المسرح عدد كبير من الشباب، يصفقون حول الراقصة ويتابعون خليل في ابتسام، هؤلاء هم رفاقه في سطح بيت شارع منشا، جاءوا لوداعه، فمن الليلة لن يشاركهم النوم في حجرات السطح الصغيرة، سينتقل لشقته الواسعة بشارع السلطان حسين، سيذهب فوزي بك إلى شقة ولده عادل في زيزينيا بعد أن نقل ابنه للقاهرة.

فرح عادل كثيرا لزواج أخته، فقد كان يتمنى لو دفع الكثير من أجل أن تتزوج. كان يحلم بأن يجد من يقبل منه آلاف الجنيهات ويوافق على أن يتزوجها. عواطف، أخته الكبيرة التي يكن لها كل احترام وتقدير.

كان يشقيه عذابها، لهذا، فرح لقرار والده بأن يعيش في شقته الخاصة به، والتي لا يأتيها إلا في الصيف.

أحس خليل بالراحة الشديدة، فبعد أن كانت قدماه تصلان للحائط، إذا مدهما على السرير؛ أصبح الآن يستطيع السير في الشقة والانتقال من حجرة لأخرى، هذا غير الصالة الكبيرة ودورة المياه الخاصة والحديثة، التي لا

مثيل لها في بيت شارع منشا ولا دورات مياه المستشفى، ولا في بيتهم بدمنهور.

جاءه عبد المنعم ليزوره في إجازة الزواج، وجد عواطف تحتفي به، وتقدم الحلوى إليه.

عندما انفرد خليل به، سأله:

- قل لي الحق، هل دفعت لك عواطف لكي تؤثر عليَّ؛ لأتزوجها؟

- بل أنا أثرت عليها لكي توافق على زواجك.

دخلت عواطف، ترتدي روبا طويلا، وتبالغ في دهن وجهها بالمساحيق. حتى تخفي اصفراره.

عندما استأذن عبد المنعم في الانصراف، لفت له لفافة كبيرة من اللحم والحلويات، لأولاده وزوجته.

لم يمر خليل بتجارب مع النساء في قريته، كان يخجل من النسوة اللاتي يجئن لزيارة أمه، ويحمر وجهه لو حدثته امرأة قريبة له. ولم يهتم – في الإسكندرية – بفتيات الكلية، خاصة أنهن لم يقتربن منه، فهو ليس به ما يشجعهن على ذلك. ليس وسيما ولا يهتم بملابسه، كما أن لهجته الريفية واضحة تماما في حديثه. ولم يجلس مع فتاة جلسة حب سوى المرة الوحيدة التي قابل فيها مديحة خارج المستشفى.

لهذا، سعد كثيرا عندما انفرد بعواطف، وأحس أن المتعة التي يجدها في معاملته معها، لن يجدها مع أي امرأة أخرى رغم جسدها الشاحب الضامر، فعلى رأي المثل " إللي ما شفشي الكبدة، تعجبه الفشة"

الغريب أن تعامله معها، جعله يبدي اهتمامه بالجنس الآخر، كان – قبل الزواج – كفتاة خجلى، فإذا تزوجت بدت أكثر جرأة، وتحدثت في أمور الجنس بلا حياء.

كان ينظر إلى الممرضات الكثيرات، ويكشف ما بهن من حسن، ووصل إلى أن رسمية هي أكثرهن أنوثة وفتنة، بل هي أكثر أنوثة من إناث المستشفى، بما فيهن الطبيبات.

قال هذا لعبد المنعم وهو يسير بجواره في أحد الأيام التي تسهر عواطف فيها بالمستشفى.

فقال عبد المنعم:

- أصبحت خبيرا في هذه الأمور.

عادت رسمية إلى ما كانت عليه قبل أن يفتضح أمرها مع الدكتور عبد الحكم، خاصة أن زوجها سمير قد سافر إلى السعودية ولن يضايقها بغيرته عليها.

لم تكن رسمية تتردد على مكتب خليل كثيرا، فعملها لا يتصل بعمله، كما أن قدرية ومديحة ليستا من صديقاتها، وخليل هذا، ليس هو الشاب الذي ترتاح للحديث معه. ريفي، إذا تحدث معها خجل، وأدار وجهه بعيدا.

لكن تغيره – بعد زواجه من عواطف – آثار اهتمامها، بدأ يرتدي ملابس أكثر أناقة وحداثة من ملابسه السابقة التي كانت لا ينسجم بعضها مع البعض. ولا تناسبه إطلاقا. يقولون إن عواطف تصر الآن على اختيار ملابسه

بنفسها. وتشرف على ارتدائه لها. كما إنه بدأ يهتم بشعره المجعد، يدهنه بالزيوت حتى يجعله ناعما، وشاربه بدا مصفوفا بعناية، فتغير وجهه إلى الأجمل.

ضحكت رسمية عندما رأته يسير أمامها ببذلته، لاشك أن حائكها من القلائل في الإسكندرية، فالبذلة محبوكة عليه، والقميص ياقته عريضة غير قمصانه القديمة التي يحيكها له خياط من قريته.

وقف خليل أمامها، قال في جرأة لم تعهدها فيه من قبل:

- شكلي يضحك؟!

قالت وهي تبتعد خجلى:

- كلا.

سار خلفها في عناد، كاد يمسك ذراعها، فقد ساءه أن تنظر إليه بجرأة تصل إلى حد الصفاقة:

- قولي، ماذا حدث؟

قالت وهي تحاول الدفاع عن نفسها:

- تغيرت كثيرا بعد الزواج.

لم يستطع أن يكمل الحديث، خجله القديم عاوده ثانية، سار إلى مكتبة غاضبا، وصعدت هي الدرجات إلى عملها.

جلس شاردا، لقد تغير حقا. عواطف أصرت على أن يذهب مع أخيها إلى حائكه الخاص، لكي يحيك له ثلاث بذلات، وأخذه كذلك إلى حائك قمصانه.

قالت له:

- المال كثير، ويجب أن تظهر بصورة مشرفة في المستشفى.

لكن ذلك لا يدعو للسخرية، فتضحك منه البنت رسمية هكذا.

أراد أن يتحدث في هذا الموضوع مع مديحة وقدرية، لكنه منذ أن تزوج وهما يعاملانه في جدية شديدة وفي حدود العمل.

***

حملت عواطف، عندما تنجب سيكون قد مر على زواجهما تسعة أشهر كاملة. فرحت كثيرا، فلابد أن تغتنم الفرصة وتنجب. وإلا وصلت لسن اليأس. وبات هذا مستحيلا، لكن خليل ساءه هذا، ليس لأنه لا يريد أطفالا وإنما لأن حالة عواطف ساءت، جسدها الضامر النحيل لم يتحمل الحمل، فتقوس، فكانت تعرج وهي تمشي.

قال عبد المنعم وهو يراها هكذا:

- لقد كسرتها.

(قالها بطريقة توحي بأشياء خبيثة، جعلت خليل يغضب منه) وبدا وجهها متورما، وأنفها منتفخا؛ حتى صارت لا تطاق.

مدير المستشفى الذي كان يأنس لحديثها وجلوسها عنده؛ لم يعد يحتمل رؤيتها للحظات.

ودار الحديث حول زوجها، كيف يستطيع احتمال رؤيتها في البيت. وهم لا يتحملون هذا إذا مرت أمامهم؟!

خلال شهور قليلة من الزواج، أصبحت عواطف غير صالحة للتعامل الجنسي، حدث هذا بعد أن خرج خليل من قمقمه، وأصبح هذا الشيء يمثل عنده أهمية قصوى.

لهذا، كان يزفر ويتقلب في أسى بفراشه، كأنه ينام على الجمر، ولا يسمع من عوطف سوى الأنين. كانت – هي – فرحة رغم ما حل بها من تشويه. قالت له:

- بعد شهور قليلة سألد لك طفلا جميلا، يملأ البيت علينا، وأعود إليك كما كنت وأجمل.

لم يصدق إنها ستعود كما كانت، وأن ذلك الجسد سوف يتماسك يوما، ويتصلب كما كان، وأن الوجه سيذهب عنه التشويه، بل أحس إنه غير قادر على لمسها، حتى وإن عادت كما كانت.

بعد أن كان سعيدا بما لقيه معها في أيامه الأولى للزواج. صار حزينا الآن، لاحساسه بأن الناس تشفق عليه، بل يسبه البعض لأنه قادر على احتمال امرأة في هذه الحالة.

وبعد أن كانت مديحة حزينة ومهمومة لزواجه منها، صارت سعيدة وكأنها تشمت فيه لما حل به بسبب ذلك الزواج. وبعد أن كانت تحادثه جادة وفي حدود العمل فقط؛ صارت تختلق الأسباب لتحدثه، وتسخر منه ومن الزواج بصفة عامة.

رددت الممرضات في سكنهن حكاية عواطف وخليل، وأبدت كل واحدة رأيها في هذا، قالت واحدة:

- جسدها الضامر لم يحتمل جسد خليل العفي؛ فانكسر.

قالت هذا بإيحاءات خبيثة، فضحكت البنات ساخرات، ووصفته إحداهن بإنه كالحمار في قوته، وعواطف كالعصفور الهش الضعيف.

ضحكت البنات في خجل، لما تقصده زميلتهن من ذكر " الحمار " هكذا. ورسمية تجلس فوق فراشها دون أن تشاركهن الرأي.

كل ما بها يصرخ بالأنوثة، شفتاها الممتلئتان، ووجهها الدائم الاحمرار. لقد سافر سمير منذ شهور كثيرة، وأسرها الزواج. لم يسمح لها بالانطلاق كما كانت. نعم، كانت علاقاتها في الأول شقاوة بنت ترغب في الزواج، فكثير من الفتيات يفعلن هذا. لكن بعد الزواج الأمر ليس سهلا، أقل خطأ في ذلك المجال جريمة. لهذا، لا تسمح لها أمها بالخروج الكثير. أهل سمير يسكنون قريبا منها، يتابعون تحركاتها، ويعدون عليها الخطوات.

لم يعد لها سوى المستشفى، الأطباء الشبان بعد حادثة عبد الحكم، يبتعدون عنها، يخافونها، من سوء حظها، يكتشف أمرها في أول لقاء معه، والكل يعلم – حتى المدير – إنه كان يفعل هذا كثيرا مع العديد من الممرضات الدميمات اللاتي لا يقربهن أحد سواه.

عندما قالت لزميلاتها: إن لقاءها مع عبد الحكم كان الأول والأخيرن لم يصدقنها، قلن:

- لا شك إنه كان يفعل هذا معك كثيرا.

المستشفى ليس به رجال غير هؤلاء يصلحون لما تريد. الأطباء الكبار يعافون مثل هذه الأشياء، لا يعرضون تاريخهم ووقارهم من أجل امرأة مثل رسمية، كما أن معظمهم لا يصلح لما تريد.

لم يتبق سوى رجال في حال حامد – عامل البوفيه. وإن كانوا مازالوا يحتفظون برجولتهم، ومتزوجون ولهم أطفال.

عبد المنعم لا يفكر في هذا أبدا، كل ما يهمه السمك الذي يبيعه للأطباء، والخدمات التي يقدمها لهم مقابل المال، حالته الاجتماعية لا تجعله يفكر في شيء سوى هذا. والعمال يخافون الاقتراب منها، يحسون إنها لن ترضى بهم، وخليل، قوته أصبحت حديث المستشفى، تشبهه زميلتها بالحمار.

أغمضت عينيها في تلذذ، يا للأسى، لقد كانت تسخر من حديثه الريفي، وملبسه، فتفكر فيه الآن كعشيق يملأ الفراغ الذي تعيش فيه، خاصة أن حالة زوجته لا تسمح له بلمس يدها، وبالمرة تنتقم من عواطف التي فضحتها يوم أن رآها جاد في الفراش مع عبد الحكم، هذا غير تعاليها عليها الدائم.

أحس خليل بإنه يقترب من الجنون، عواطف تقوم في الصباح قبل أن يصحو، تدخل الحمام وتتقيأ، يصحو كل يوم على صوتها، تتأوه بعد ذلك، وتحس أن قلبها يرجف، وإنها قد تموت بعد لحظات، ويجري هو في الشقة يبحث لها عن الأدوية الكثيرة.

لكن بعد أقل من ساعة تضحك، وتضع المساحيق على وجهها لتزيده تشويها، يحس أن الناس في الشارع يطيلون النظر إليها وهي تعرج بجواره،

وتستند على ذراعه. لا شك أن ما يحدث له بسبب عدم رضا أهله على تلك الزيجة.

مما زاده أسى إنه ضبط نفسه متلبسا بإمساك يد ممرضة كانت تصافحه. وأن البنت ارتبكت وابتسمت في خجل، فترك يدها مرددا كلمات غير مفهومة، قاصدا بها الاعتذار إليها، ثم أكتشف إنه – أيضا – يتابع ساقي قدرية إذا ما سرحت وارتفع الثوب قليلا عن ساقيها، أو إذا نامت فوق مكتبها وأراحت الساقين في حرية.

لو لم يكن قد تزوج، لعاش ما عاش دون أن يحدث له ما يحدث الآن. تذكر الطالب المتدين الذي قطع ذكره خوفا من الفتنة والحرام. وأكثر – هو – من الجلوس مع حامد – عامل البوفيه – تمنى لو سأله عن إحساسه والفتيات الجميلات يضحكن أمامه في خلاعة، بل كن يذكرن أمامه الكلمات الخليعة والبذيئة ليثرنه.

لكن حامد لا يتحدث في مثل هذه الأمور أبدا.

اقترب عبد المنعم منه، طلب زجاجة مرطبات من حامد على حساب خليل، بينما أدار خليل وجهه عنه غاضبا:

- مازالت غاضبا مني؟

لم يجبه:

- كنت مغسل وضامن جنة؟!

تابع خليل رسمية وهي تقترب من حامد العابس، ضاحكة. تمايلت أمامه وهي تتظاهر بعدم رؤيتها لخليل وعبد المنعم.

أكمل عبد المنعم:

- ثم أنا لم أضرك في شيء، كنت تسكن في حجرة صغيرة جدا، أسكنتك في شقة واسعة تبرطع فيها كما تشاء.

صاح خليل بعد أن أحس بأن الذين يجلسون قريبا منهما يسمعونه:

- كفى يا عبد المنعم، كفى.

- أنت مكبر الحكاية، زوجتك ستعود إلى حالتها الطبيعية بعد الولادة.

صمتنا للحظات، ثم قال عبد المنعم فجأة:

- ما دمت مزنوقا هكذا، ابحث لك عن امرأة تسد خانة إلى أن تشفى زوجتك.

قام خليل غاضبا:

- ما الذي تقوله؟!

- أريد أن أراضيك بأي طريقة.

فكر خليل فيما قاله عبد المنعم بإنه في حاجة لامرأة، بعد أن وصلت عواطف إلى هذه الحالة، لكن، أيعقل أن يفعل هو هذا؟!

أحيانا، وعندما تشتد عليه الحالة، كان يُقرر في المساء أن يفعل في الصباح شيئا، وإنه لن يخجل ولن يراعي أي شيء، ثم يفكر في النساء، وفي كل مرة يصل تفكيره إلى البنت رسمية التي تتفجر أنوثة.

لكنه في الصباح يعجز عن الوقوف أمامها، بل إذا جاءت مكتبه لتحدثه، لا يكمل الحديث معها، نعم، هو لا يستطيع هذا أبدا.

تنام عواطف على ظهرها، وتكثر من الأنين والتأوه، فلا يجد رغبة في تناول غداءه، يخرج متعللا بأي شيء، يسير في الشوارع.

فوزي بك – والدها – ترك الشقة لهما وارتاح لدى ابنه، وتركه للعذاب.

زار مرة في شارع منشا، قابل عطية البقال، وجد امرأته تجلس في الداخل، تبيع للزبائن، قال الرجل فرحا:

- لقد من الله عليّ. زوجتي حامل يا أستاذ خليل.

المرأة منتصبة القامة، تتحرك في خفة، من يراها لا يظن أبدا إنها حامل.

صعد خليل إلى سطح البيت، التف الطلبة حوله، قبلوه فرحين، دخل حجرته، وجدها قد انشغلت بطالبين جديدين. أحس بالاختناق وهو يجلس داخلها، لم يستطع انتظار الشاي. أسرع إلى الشارع، ركب الترام، معه " الاشترك " يستطيع أن يركب به في أي وقت، اي ترام من ترام البلد. وصلت الترام للمنشية، (اقرب محطة لبيته) لكنه لم يترل، سارت الترام حتى آخر الخط. رأس التين، لم يترل أيضا. ظل جالسا حتى امتلأت ثانية بالركاب. وسارت عائدة إلى أول الخط في شارع محرم بك. عندما اقترب الكمساري منه، قال: اشتراك.

لم يلحظ الكمساري إنه كان موجودا وقت الذهاب إلى رأس التين. تابع وجوه الناس وأذرعة النساء العارية والسيقان التي يمكن رؤيتها من مكانه. نام دون أن يحس، استيقظ فإذ به في محطة مصر.

وصلت الترام إلى آخر الخط في شارع محرم بك. لكنه ظل جالسا كما هو، إلى أين سيذهب؟! عواطف تلاحقه بأنينها وسعالها وشكواها، وهو لا يريد أن يرى عبد المنعم الذي كان سبب تلك الزيجة. فأين سيذهب، وهو وحيد في الإسكندرية. لم يحس بالوحدة إلا هذه الأيام.

سارت الترام في شارع محرم بك، اخترقته، ثم محطة مصر، وشارع الخديوي، حتى سيدي العمري، ثم شارع أبي الدرداء حتى رأس التين. وهو جالس، الكمساري يدهش لتصرفه. أراد أن يسأله عن سبب بقائه في مكانه والترام ذاهبة وعائدة، لكنه سأل نفسه: أليس من حقه فعل هذا، طالما الاشتراك معه؟!

عاد مساءا إلى البيت، عواطف نائمة، سألته وهي نصف نعسانة:

- من، خليل؟

- نعم.

سار في احتراس وهدوء لكي لا تسمعه؛ فتستيقظ وهو لا يريد هذا.

***

أحست رسمية أن تجاهل خليل لها يزيدها إصرارا وتمسكا به، يطاردها بجسده القوي، إنه ليس في وسامة رمضان طالب الطب، الذي قد يكون الآن

طبيبا مرموقا. ولا في وسامة خميس بن بائع اللبن. لكن الوسامة ليست الأساس في مثل هذه الأمور.

تذكر ما حكاه لها رمضان يوما، وهو يضمها لصدره، إنهم سألوا امرأة كانت مشهورة بعلاقاتها مع الرجال، عن أهم ما يشد المرأة للرجل، فأجابت: ثلاث أسباب، رجولته، وخفة دمه، يعني يكون مقبولا، وإن كان وسيما، فخير وبركة.

الولد رمضان كان يقرأ كثيرا، شقته كانت مليئة بالكتب.

وخليل تحكي المستشفى عن مقدرته، ورجولته، كما إنه ليس منفرا، الممرضات يقلن إن لهجبته الريفية محببة إليهن، وتصرفاتها فيها خفة دم.

دخلت المكتب فجأة، كان رداء الممرضات الذي ترتديه؛ مفتوحا عند الصدر، فظهر صدرها عندما انحنت فوق مكتبه. كانت تستسفر عن مفردات مرتبها بعد الزيادة الأخيرة، قالت هذا لكي تجد فرصة للتحدث معه.

والرجل يكتب لها كل مبلغ على حدة، كان مشغولا بحساب المرتب، فلم يكتشف الصدر الأبيض والثديين المدورين، لعنته في نفسها، فهي لا تريد حساب مرتبها، بل لا تريد المرتب كله. فسمير يرسل إليها مبالغ كثيرة كل عدة شهور، كل ما تريده أن يلتفت إليها، هي بلا زوج الآن، وهو مثلها بلا زوجة. وحتى إن عادت عواطف إلى حالها الأول؛ أيضا سيكون بلا زوجة.

دقت مكتب مديحة بردفيها وهي خارجة ترقص وسط المكاتب القليلة، قلدتها قدرية في رقصتها – وهي جالسة – فابتسمت مديحة وهي في

حالة ضيق من خليل هذا. فبعد ما حدث لزوجته، تأتيه تلك المرأة التي يعرف المستشفى مدى فسقها ورعونتها.

سألته عواطف بعد أن تناول غداءه في البيت، عن المكان الذاهب إليه، قال:

- سأقابل أصدقائي في المقهى.

خرج، تعرف هي إنه ليس له أصدقاء، حتى عبد المنعم لا يقابله الآن إلا نادرا.

ركب الترام وظل بها حتى آخر الليل، حدث الكمساري السائق عن أمر هذا الراكب الغريب، قال السائق:

- لله في خلقه شئون.

(8)

رأته عواطف وهو يتحدث – اليوم – مع رسمية بجوار السلم، قالت:

- خليل.

أكمل حديثه بينما هي تنتظره في غيظ، قالت رسمية:

- اذهب إليها قبل أن تغضب وتثور.

ذهب إليها في ضيق:

- ماذا تقول لك هذه المرأة؟

- وما شأنك أنتِ؟!

- شأني؟! لا أقصد شيئا، لكن أردت أن أنبهك.

تركها وسار، هو الآن لا يطيقها. لولا الملامة لطلقها وارتاح. لكن والدها – فوزي بك – رجل طيب، وعادل – شقيقها – يحسن معاملته، كما إنها حامل، فكيف يأتي الطفل ويجدهما منفصلين؟!

وقفت عواطف لحظات تتابعه وهي سائرة، ثم صعدت إلى حجرتها في عناء.

منذ أن جاء خليل من بلدته إلى الإسكندرية، لم يعان ما يعانيه الآن من ألم. منذ أن كان صغيرا وهو لا يطيق المرض، لم يستطع احتمال أنين أمه

التي يحبها، كان يهرب إذا مرضت، يسير نحو الترعة الكبيرة ويعود مساءا متواريا. يتألم من أجل أمه، لكنه لا يقترب منها، حتى عرفت أمه طبعه. لكن آلام عواطف لا تنتهي، صورتها المشوهة تطارده. كان مرتاحا في حجرته الصغيرة وسط الطلبة الآن كل الأشياء تفتحت أمامه، ضاق من حجرته الصغيرة التي عاش بها سنوات طوال، وذلك بعد أن جرب الحياة في شقة واسعة، كذلك النسوة، لم يكن يهتم بهن ذلك الاهتمام الذي يبديه الآن، بعد أن تزوج عواطف. كما يقولون في بلدته، ما عزوبية إلا بعد زواج.

يهرب من قدرية التي تتحدث عن فترة الحمل، وكيف كانت تبدو أكثر جمالا، حتى إن النسوة قلن لها: ستلدين بنتا جميلة، فالبنت تحلي أمها وقت الحمل. لكن هي تبدو جميلة في حملها للولد والبنت. وما دامت عواطف قد حدث لها كل هذا التشوية، فحتما ستلد ولدا.

ويهرب من نظرات مديحة التي لا يعرف كنهها الآن. هل هي نظرات شفقة، أم شماتة؟ لا يحلو له الجلوس الآن، إلا بجوار حامد – عامل البوفيه – الرجل العابس دوما، منذ أن كشف سمير – جاره عن سره، لا يتحدث إلا قليلا، وخليل يقترب منه، يحادثه. حامد الوحيد في المستشفى الذي لم يعلق على موضوع زواجه من عواطف.

- حامد، لماذا أنت صامت دائما؟

- تحت أمرك، قهوة، شاي؟

قالها بآلية ليغلق أي باب لحديث يريده خليل:

- هل أنت سعيد في المستشفى؟

- وما الذي سيحزنني؟!

أحس خليل أن الرجل حالة لا تسمح له بالحديث مع أحد.

تابعه وهو يلم الزجاجات الفارغة من فوق الموائد.

جاءه التومرجي قائلا:

- استاذة عواطف تريدك في مكتبها.

أومأ برأسه له، ثم عاد إلى شروده.

***

ابتسمت عواطف له، قالت في ود شديد:

- اجلس.

أشاح بيده:

- لا أريد الجلوس.

- ما الذي يغضبك مني؟

- أرجوكِ، سأعود لمكتبي لانهاء بعض الأعمال.

ابتسمت ابتسامة واسعة:

- كنت سأسهر اليوم، لكن من أجلك لن أسهر، سأذهب معك للبيت.

أحس بالضيق أكثر، تريد أن تشعره باهتمامها، يحدث أحيانا أن تتحامل على نفسها، وتجهز نفسها له، رغم ما بها، فيزيد ذلك هماً، فهو لو عارضها ستحزن أكثر، ولو وافقها سيعاني الويل منها، فمهما تحملت، لن

تستطيع ، وكلما ازدادت أنينا وتأوها، إزداد هو أسى ورغبة في أن يخرج من البيت كله.

ويؤدي هذا – عادة – إلى أن تنام في الفراش أياما كثيرة.

واضح من ابتسامتها وحديثها اليوم، إنها ستتحامل على نفسها من أجله، تريد أن تنسيه رسمية، تظن أن هناك شيئا بينها وبينه. وتظن إنها بجسدها العليل هذا، سوف تنسيه رسمية.

لا، لن يوافق مهما فعلت – ليتها تبقى في المستشفى ولا تعود للبيت حتى تلد، سيزورها في سكن الممرضات من وقت لآخر.

***

ركب الترام بعد الغداء، تعلقت عواطف بيده قبل أن يخرج. لكنه أصر على ذلك، بكت، قال:

- لدي موعد مهم، لا أستطيع التخلف.

صاحت في ثورة:

- أعرف إنك ستقابل رسمية.

ثم بكت.

دفع الباب خلفه وأسرع إلى الشارع.

الترام في انتظاره، سوف يخلو مقعد بعد عدد قليل من المحطات، سيجلس بجوار النافذة، يتابع المحلات عديدة الألوان، والشوارع، سيظل في مكانه إلى أن يحل الظلام.

الكمساري شاب صغير، يضحك كثيرا ويداعب الركاب.

سأله في محطة رأس التين:

- حضرتك ستعود معنا؟

- نعم.

ثم أخرج الاشتراك حتى لا يقول كلمة أخرى.

أراد الرجل أن يداعبه، كما يفعل مع سائر الركاب طوال الطريق، لكنه وجده عابسا، فكف عن الحديث معه. عندما وصلت الترام إلى آخر شارع محرم بك، وهبط كل الركاب، وبدأت رحلة أخرى، لم يستطع الكمساري الشاب السكوت، فقال في اعتراض واضح:

- ستعود معنا أيضا؟

- نعم، ممنوع؟!

- لا، لكن الأمر غريب ونادر.

نظر خليل إلى الشارع وكأنه لم يسمعه، لن يستطيع أن يقيم علاقة مع رسمية مهما فعلت. فهناك أشياء تمنعه، الخوف من الله، هو الذي لم ينقطع عن الصلاة منذ الصغر، ووقاره في المستشفى الذي اعتاده الناس فيه. أيكون مثل عبد الحكم الذي كانت هانم التومرجية تسخر منه أمام الجميع؟!

جاء الكمساري ضاحكا، بعد المنشية، سأله عن " فكة " يحث خليل في جيوبه وأعطاه النقود. عندما وصلوا لمحطة رأس التين، وقفت الترام لبعض الوقت، حتى يشرب السائق والكمساري الشاي، ظل هو في مكانه كالمخدر،

كان محموما بعواطف ورسمية ومديحة، وعطية البقال الذي تزوج بعد أن كبر وشاخ، واستطاع أن يلحق بالعربة الأخيرة من القطار، فحملت زوجته.

يطارده الشاب المتدين الذي قطع ذكره، لم تنشر الجرائد صورته، لكنه يتخيله، بل يحس – الآن – إن تلك الصورة ليست من خياله، إنما هي الصورة الحقيقية لهذا الشاب، وجهه ممتلئ، ولحيته كثيفة وعيناه واسعتان بهما طيبة وسكينة.

لو أطلق حامد لحيته، سيكون مثله.

هبط من الترام قبل أن تدخل الجراج بعد الواحدة صباحا، صافح الكمساري والسائق وعاد سائرا على القدمين لبيته.

***

اتصل به فوزي بك – والد عواطف – في المستشفى، قال في ود:

- كيف حالك يا خليل، لقد اشتقت إليك، لماذا لا تزورني في شقة عادل ابني؟!

أراد أن يعتذر، لكن الرجل ألح، قال:

- تحت أمرك.

جاءه عبد المنعم مبتسما – كعادته – داعب مديحة، وأخذ سندوتشا من قدرية. أخذ يلوكه وهو واقف بجوار خليل، ثم قال بعد أن انشغلت قدرية ومديحة:

- عواطف تشتكي منك.

- لماذا؟!

- تقول إنك تخرج بعد الظهر ولا تعود إلا بعد الثانية صباحا.

- وما الذي يغضبها في ذلك؟!

- تعتقد إنك على علاقة برسمية.

وكأنه لم يسمع قوله، فقد تحدث مع مديحة في كشوف المرتبات التي تعمل بها الآن.

قال عبد المنعم وهو مازال يلوك:

- أين تذهب في ذلك الوقت؟

- لا شأن لك بي.

- تقابلها حقا؟

تحدث مع مديحة وتركه.

***

كان فوزي بك ودودا معه، قدمت الخادمة الحلويات مع الشاي، اشتراها الرجل خصيصا من أجله، تحدث معه في أمور كثيرة؛ حتى ظن أن الرجل دعاه لمجالسته من فرط اشتياقه إليه، وليس السبب غضب عواطف منه، لكن بعد ساعة تقريبا من الحديث المتواصل، فاجأه قائلا:

- ما الذي حدث بينك وبين عواطف؟

- لا شيء.

فضحك الرجل:

- تقول إنك تهرب من البيت، وإنك.....

- إنني في حالة نفسية سيئة ولا أريد أن أسبب لها ضيقا.

أخذ الرجل يرشده للطريقة المثلى لمعاملة النساء " الناقصات عقل ودين" وأن كلمة واحدة تذيب كل أوهامهن وغضبهن، قال له تعلم أن الكذب ممنوع إلا في ثلاث حالات، منها أن تكذب على زوجتك وتصفها بالجمال، وإن لم تكن كذلك. وأن تصف لها مدى حبك وهيامك وإن كنت تبغضها.

خرج من لدى الرجل بعد الخامسة، لم يستطع الذهاب للبيت، كل ما قاله الرجل قد تبخر عندما طالعته سحنتها وجسدها المنكسر، وتحركاتها العرجاء.

أخذ يدور في الشوارع إلى أن هده التعب.

عندما أدار المفتاح في " الكالون " أحس بحركة داخل الشقة، كانت عواطف في انتظاره، ترتدي قميص نومها العاري، وتصبغ وجهها بالمساحيق، وتبتسم في دلال.

أسرعت إليه..

لم يستطع هذه المرة أن يهرب منها، تعامل معها في أسى وحاولت هي أن تخفي آلامها.

***

لم تأت قدرية اليوم، وحده مع مديحة في الحجرة. تنظر إليه في أسى. أحست إنه عاد إلى ملابسه غير المهندمة، وقد أهمل نفسه أكثر من أيام العزوبية، فقلما يحلق لحيته، وشاربه تهدل، ولم يعد منتظما كما كان.

اقتربت منه:

- استاذ خليل، تسمح لي بالجلوس بجوارك؟

- تفضلي.

أشار إلى المقعد أمامه، لكنها حملت المقعد ووضعته بجوار المكتب، قريبا جدا منه، ثم قالت:

- ما الذي يشغلك هذه الأيام؟

- لا شيء.

- أحس بك، أكثر من شهر وأنت مرتبك، وكأنك تعاني أمرا.

- قلق من أجل عواطف التي أتعبها الحمل.

- لا، الأمر أبعد من هذا، كل الرجال يمرون بذلك الموقف دون تأثر.

مط شفتيه:

قامت وأعدت الشاي، وضعته أمامه، ابتسمت، ذكرته عندما ذهب لمقابلة أبيها راغبا في الزواج منها.

- أنت طيبة يا مديحة.

- وأنت تستحق كل خير.

أحس براحة لوجهها المستدير وعينيها السوداوين. ابتسم، كل شيء قسمة ونصيب. لو تزوجها ما كان أحس بما يحسه مع عواطف الآن.

دخلت رسمية، ابتسمت عندما رأت مديحة تجلس قريبة منه. قالت:

- أستاذ خليل، أريدك أن تكتب لي رسالة إلى سمير زوجي.

نظر إلى مديحة التي ابتعدت، وأبعدت المقعد عن المكتب، قال:

- إنك تعرفين الكتابة يا رسمية.

- لكن لا أعرف كيف أصيغ الكلام مثلك.

وقفت مديحة وقد أحمر وجهها، ثم جلست فوق مقعدها، حركت رسمية جسدها في عصبية وسط المكتب، جلست فوق المقعد الذي كانت تجلس مديحة فوقه.

انحنت بلا حياء حتى كادت شفتاها تلمسان ذراعه الكثيف الشعر.

دفعت مديحة درج مكتبها في عصبية، ثم خرجت من الحجرة، قالت رسمية:

- ما الذي أغضب هذه الفتاة؟!

- من أخبرك إنها غاضبة؟!

- دعك منها، أريدك أن تكتب رسالة لسمير زوجي، تشرح له فيها مدى شوقي إليه، وحاجتي لعودته، أنت تعلم ما أحسه يا أستاذ خليل، من وحدة، تصدق، لا أستطيع النوم الآن إلا بمنوم.

نسيت الرسالة وأخذت تشكو همومها، حماتها التي تصفها بالفجور، وتتهمها بإرسال ابنها بعيدا حتى يصفو لها الجو مع من تحب، وأمها التي تريد أن تقيدها في " رجل " السرير.

لمست ذراعه الكثيفة الشعر بأصابعها، أراد أن يبعدها، لكنها تشبثت بها في عصبية.

أحس أن المرأة تتصرف وكأنها في حجرة نومها، صاح بها:

- رسمية، إننا في مكان عمل.

- ما ذنبي إن كنت لا أعرف كيف ألقاك خارجه.

- ولماذا ألقاكِ؟!

- لكي أشكو لك ما أحسه من وحدة.

عادت مديحة إلى مكتبها فأبعدت رسمية يدها قائلة:

- لقد أرسل لي سمير زوجي رسالة، قال لي فيها إنه يثق بك، وطلب مني أن استشيرك في أموري الخاصة.

قال وهو ينظر ناحية مديحة في أسى:

- سأكتب لك الرسالة، كما طلبتِ.

وقفت رسمية في عصبية قائلة:

- سأعود بعد ساعتين لأخذها.

اهتزت في الحجرة، تابعت مديحة في تحد، ثم خرجت.

جلست مديحة غاضبة وحزينة، لفت مقعدها لناحية الباب، قام خليل إليها:

- ما الذي يغضبك؟
- لا شيء.

بكت:

- إنني كلما اقتربت منك، تأتي أشياء لتبعدك عني.
- رسمية لا تعني لي شيئا، إنني لا أرتاح لحديثها معي.
- كيف، والمستشفى كله يتحدث عن مدى جمالها وأنوثتها؟!
- لا أرتاح لأحد غيرك.

مسحت دموعها فرحة.

***

ركب الترام، جلس في آخر العربة بجوار أحد الركاب، ليس مهما، فبعد قليل سيخلو مقعد بجوار النافذة، سيجلس فوقه ليشرد وحده

في محطة رأس التين، رأي الترام التي يعمل بها الكمساري الشاب الذي يمازح الركاب، فأسرع وركب معه، فرح الكمساري به:

- أهلا، أستاذ خليل، بحثت عنك اليوم في كل الترميات.

قدم له كوب شاي، ووقف بجانب مقعده، حدثه الشاب عن بعض المواقف الضاحكة التي مرت به اليوم.

عندما بدأ الترام في التحرك، عاد الكمساري إلى مكانه في آخر العربة، كان يحدثه من بعيد من وقت لآخر:

- آخذ بالك يا أستاذ خليل؟

أو أن يرجو الركاب لأن يدخلوا، داخل الترام قائلا:

- ادخلوا بجانب الأستاذ خليل، نعم، ذلك الذي يرتدي القميص الأزرق.

عرفه معظم سائقي خطي 4، 5 اللذين يصلان إلى رأس التين، ومعظم الكمسارية يحدثونه ويسألونه المشورة، ويرسلون زوجاتهم وأولادهم للمستشفى للعلاج.

عند العودة، يسير وسط الذين يسكنون قريبا من بيته.

لقد ارتاح لحديث مديحة، في عينيها صدق، وجهها الجميل البريء يريحه، غير الوقاحة التي يجدها في شفتي رسمية، أو الوهن الذي يجده في جسد عواطف.

أحس بالسعادة وهو يرتدي ملابسه، استعدادا للخروج، والذهاب إلى العمل. سيرى مديحة ويحدثها، لن يسمح لرسمية بإفساد ما بينهما، نعم، لابد أن يوطد علاقته بها، وإلا أضاعه القلق والحزن.

يحدثه الكمساري الشاب عن خطيبته التي تخجل من عمله ككمساري، وتلح عليه لكي يجمع نقودا لشراء سيارة أجرة ليعمل عليها.

- أي عمل أكثر شرفا، الكمساري أم سائق التاكسي، إنها لا تريد الشرف، تريد المال الكثير، كلهن كذلك.

ويضحك خليل، يشكو له السائق سوء الحال. وغلو الأسعار، والمبالغ التي ينفقها على " شوار " ابنته، بينما خطيبها الموظف يريد أن يتزوج دون أن يدفع شيئا. يقول: يكفي أني جهزت الشقة.

تنتظره مديحة بفستانها الأبيض الذي يتماشى مع وجهها الجميل، قدرية لم تعد تساعدها على إقامة علاقة معه، كيف تسمح بعلاقة مع رجل متزوج، وزوجته حامل؟! لهذا تخفي مديحة رغبتها عن قدرية، تظهر أمامها عكس هذا.

ما الذي يمنع لو تزوجها على تلك المرأة التي تشبه خيال المآتة؟! – لكن والد مديحة سيفسد الزواج هذه المرة أيضا، لو تساهل معه ما ذهب خليل إلى عواطف.

عادت الابتسامة إلى فمه، بعد أن صفت له مديحة، وبعد أن ارتاح للكمسارية ولسائقي الترام.

بمديحة والترام يستطيع أن يتغلب على وساوسه ورغبته في الهروب من الإسكندرية، تاركا عواطف وما في بطنها:

- مديحة، أريد مقابلتك خارج المستشفى.

- أين؟

- نفس المكان الذي التقينا فيه.

- لكن، أنت متزوج الآن!

- ليس مهما.

ابتسمت، لقد صارت أكثر شجاعة معه، زواجه من عواطف جعلها تتمسك به أكثر، تخاف أن يضيع منها ثانية.

(9)

تقابلا، في المرة السابقة لم يكن محتاجا إليها كما هو الآن. وكانت هي تريد منه أن يقابل أباها، كما رسمت لها قدرية لكن هذه المرة، هي التي تريده ألا يفلت منها أبدا حتى لو لم يتزوجها.

أمسك يدها الرقيقة:

- لماذا لم تستجب لرسمية رغم ما بها من فتنة؟
- دعيكِ من كل شيء سوانا.
- لديك حق.
- لو استجاب أبيك لي، لكنتِ زوجتي الآن.
- لم تكن متحمسا، وإلا تزوجتني مهما كانت الشروط.
- إنني متحمس لك الآن، لأنك أملي الوحيد في البقاء في الإسكندرية.

سارا معا، لم تكن مديحة خائفة من أقاربها " الجعافرة " الذين قد يقتلون الفتاة إذا أحبت دون رغبتهم.

- لا أريد أن أتسرع يا مديحة، فأخطبك الآن وأضيع كل شيء، لابد من دراسة الموقف بعناية وتأن.
- كل ما يهمني الآن أن تحبني.

- قد يرانا أحد العاملين في المستشفى.
- أتخاف عليّ، أم تخاف من عواطف؟
- كلا، لو قابلني أحد، سأقول إنك خطيبتي.

***

بدت مديحة سعيدة في اليوم التالي، غنت في الحجرة وداعبت قدرية، وأعطت نقودا للساعي وطلبت منه أن يقدم مرطبات لقدرية وخليل على حسابها، قالت قدرية لها:

- ما الذي حدث، هل هناك عريس على الطريق؟
- ليس مهما العريس الآن.

ابتسم خليل في سعادة، البنت تتحرك في خفة، تشعره بحيوية الحياة، يود لو شدها من يدها إلى أبيها في المطبخ، ويصرخ في وجهه قائلا: لابد أن أتزوج ابنتك مهما حدث.

لكن المشكلة زادت تعقيدا الآن، لقد اشترط الرجل عليه في المرة السابقة أن يقوم بتجهيز كل شيء، هذا غير تورطه بزواجه من عواطف التي ستأتي بطفل خلال شهور قليلة.

وزواجه لم يأت له بشيء، مازال لا يملك مقدم شقة أخرى، ولا يملك ثمن الجهاز الذي يشترطه عليه الرجل. على أي شيء يفرح، وماذا سيقول له أبوها؟!

هي لا تهتم بشيء، البنت تحبه حقا، رغم ما تعرفه عنه الآن، تحبه رغم أنه خذلها وتزوج عواطف.

دخلت عواطف تحجل، ابتسمت ابتسامة عريضة، وسارت وسط الحجرة، تبتسم لقدرية ومديحة، تريد قدرية أن تضحك، فمنظرها – وهي تسير وسط المكاتب – يثير الضحك. لكن مديحة أحست بالأسى، لقد جاءت تلك المرأة لتفسد فرحتها، قالت عواطف لها:

- ســـأراجع الجزاءات مع الأستاذ خليل.

تمنى خليل لو كف الأطباء عن توقيع الجزاءات على الممرضات والعمال، لو يستطيع لدار على كل من له سلطة توقيع الجزاء، واستحلفه بالله ألا يفعل هذا، حتى لا يضطر لأن يجلس أمام عواطف كما سيحدث الآن.

الحمل يجعل مقاومتها ضعيفة، تصاب بالبرد دائما، تسعل، تتمخط، تعطس. كان المفروض أن تنيب مساعدتها لهذا العمل، لكنها تريد أن تجالسه، تحس أنه يبتعد عنها دائما. كانت تنظر من وقت لآخر إلى مديحة وقدرية، تحدثهما في أمور الحمل، متاعبه الكثيرة، الطفل الذي يدق جدران البطن بساقية ويديه، لا يرحم، تقول هذا وهي تضحك سعيدة، تنظر إلى خليل الذي يبحث في الكشوف عن الأسماء التي تذكرها له، ليكتب أمامها قيمة الخصم.

تشرد عواطف أحيانا، تتذكر أيام كانت تتابع خليل ومديحة، تتسلى بعلاقتهما معا، من كان يصدق وقتها، إنها هي التي ستفوز به وتنجب منه أيضا.

مديحة تزفر، ماذا حدث للفتاة، أهي مازالت تريده، لقد أكفر وجهها عندما رأها، كما أنها لم تعد تحدثها وتمازحها كما كانت قبل زواجها من خليل. آه، أحست الفتاة إنها أخذته منها.

تسير رسمية أمام الحجرة، تهز ردفيها، وتدق ساقيها الممتلئتين في عصبية، كأنها تريد شيئا، ما الذي يحدث هنا، أيحسدونها من أجل زوج، وهي التي عاشت السنوات الطوال دون زواج، حتى يأست من قدومه. أكثير عليها أن تسعد وحدها معه؟! المستشفى مليئ بالرجال الأكثر وسامة وأناقة منه، فلماذا تتركهم رسمية، وتطوف حول زوجها هي؟

والبنت مديحة، لماذا لا تبحث عن شاب في مستواها، موظف صغير يعمل في " الاستقبال" أو شئون الأفراد، وتترك لها خليل.

تتحرك مديحة في عصبية، كأن عواطف هي التي تزاحمها في زوجها، خليل لم يعد يتحدث معها كما كان يفعل قبل الزواج. ليس بينه وبينها سوى الأسماء، وعدد أيام الخصم. ثم يحدد القيمة من خلال الأجر المكتوب أمامه.

يطل عبد المنعم مبتسما من بعيد، يتابع الموقف من حجرته الصغيرة القريبة من حجرة خليل، يرى رسمية وهي تسير أمام الباب، ويرى عواطف التي تريد أن تحمي زوجها.

عندما تغشاها لحظات الحزن مما ترى، تتذكر إنها حامل والحزن ليس في صالحها، لابد أن تضحك وتبتسم حتى يأتي الطفل صحيحا، غير معقد.

تبتسم ثانية لمديحة وقدرية، تحدثهما عن أطفال أخيها، وعن زوجته ونوادرها في فترة الحمل وطلباتها الغريبة.

أحس خليل براحة عندما حملت عواطف أوراقها وحجلت، ثم خرجت.

وقفت مديحة لتزيل عن الحجرة غبار الصمت، الذي جثم فوقها طويلا بورود عواطف ورسمية. ضحكت وتمنت لو كانت وحدها لترقص. وابتسم خليل، وقدرية تنظر إليها مندهشة، مازالت مديحة تريده، وهو ما الذي يريده منها بعد أن تزوج؟!

***

بعد أن صفا الحال لخليل، وزال عنه القلق والكدر، عفا عن عبد المنعم، وبدأ يتردد على حجرته، بل زاره في بيته، عندما شكا له حال ابنه طالب التجارة الذي أصبح في البكالوريوس الآن، ويخاف أن يرسب، أو يخرج بمادة أو مادتين.

ظن عبد المنعم أن حالة الصفا هذه سببها رسمية، نعم، فالمرأة تجيد معاملة الرجال، وتزيل عنهم الهم، لم يحك خليل عن مقابلاته المتكررة لمديحة في المحلات العامة، وفي الحدائق، ولم يحك له عن علاقته بالترام التي يستقلها من بعد الظهر حتى آخر ترام تصل إلى الجراج، وصداقته للكمسارية والسائقين والمفتشين.

عاد ثانية إلى ركوب الترام في الصباح وانتظار عبد المنعم، وركوبه نفس الترام"، لاحظ عبد المنعم أن معظم الكمسارية والسائقين يعرفونه ويحدثونه باهتمام ويطلبون زيارته في المستشفى، أو زيارة أقاربهم له هناك. قال عبد المنعم:

- لقد أصبحت مشهورا.

***

ولدت عواطف في نفس المستشفى، المدير – بنفسه – أشرف على ولادها، وطلب رئيس قسم التوليد في بيته، وعددا من الأطباء، فقد كانت حالتها غاية في السوء، قالوا: راجع هذا لتأخرها في الزواج.

بكى فوزي بك كطفل، وعادل – شقيقها – الذي كان موجودا بالصدفة في الإسكندرية – أخذ يذرع الردهة الكبيرة في أسى وخوف، وزوجته تبكي.

وخليل أحس بأن جسده قد وهن، وعجز عن الحركة، وإنه غير قادر على تحمل شيء. ماذا لو ماتت عواطف، كيف سيستطيع تحمل ذلك؟!

ولدت عواطف بعد عناء، ولدا يشبه جده فوزي، هكذا قالت زوجة عادل عندما رأته.

لكن المأساة أن مدير المستشفى قد جمع خليل وفوزي بك وعادل وأخبرهم بالحقيقة التي لم يكن يعلموها، وهي إنها مريضة بالقلب، ولن تستطيع الحمل ثانية، بل لابد لها من معاملة خاصة، وراحة تامة، وقرر أن تبقى في المستشفى عدة أيام، في قسم " جراحة الصدر " حتى تستعيد صحتها، بعد ما لقيته في فترة الحمل والولادة.

أحس خليل بشعور غريب لم يحسه من قبل لوجود ابنه الصغير. ذلك الأمر لم يحسب له حسابا عندما فكر في المستقبل، لم يكن يظن أن وجود طفل مثل هذا سيغير من أشياء كثيرة.

زال الورم الذي كان بوجه عواطف، واستعاد أنفها مكانه الطبيعي في الوجه، وعادت إلى ما كانت عليه قبل الحمل، لكن الاصفرار إزداد.

أكانت مريضة بالقلب قبل زواجها، أم أن الحمل هو الذي سبب ذلك، هي لا تدري عن هذا شيئا.

***

بمرور الأيام عاد خليل لحياته العادية، الحديث مع مديحة ومقابلتها، ثم ركوب الترام حتى لآخر الليل، ومازالت رسمية تطارده، تقترب منه كل يوم، تتذرع بالأشياء، تدق جانب المكتب بردفيها، وتخلع نظارتها لتريه سحر عينيها، وهو يقاوم.

الرجل أعزب الآن، زوجته مريضة في المستشفى، وطبيب شاب قال لها: إن ممارسة الجنس فيه خطورة على قلبك.

سيظل خليل عزبا مدى حياة عواطف، إلا إذا تزوج عليها.

موظف من موظفي المستشفى رأى خليل ومديحة يسيران معا في محطة الرمل، هكذا جهارا نهارا، تضع يدها في ذراعه، وكأنهما خطيبان أو زوجان.

أشاع الخبر في المستشفى كله، حتى الأطباء علموا به، الوحيد الذي لم يسمع به هو والدها الذي مازال يقشر البصل في المطبخ.

حتى عواطف وصلها الخبر، قالوا لها عما حدث، غير مراعين لحالتها الصحية التي قد تؤدي بها إلى الموت. وفعلا، ساءت حالتها وبكت.

وعند بلغ خليل الخبر، ذهب إليها، لكنها صرخت في وجهه، وطلبت من الممرضة أن تخرجه من حجرتها، فاضطر أن يخرج.

بكت رسمية فوق سريرها، ومسحت دموعها مسرعة حتى لا تسألها الزميلات عما يبكيها. أسرعت إليه غاضبة، قالت:

- أستاذ خليل، أريدك في كلمة.

قالت هذا دون خوف من شيء، وخرج خليل وسط دهشة مديحة وقدرية.

سارت بعيدا عن الحجرة، قالت:

- أريد أن أتحدث معك في أمر مهم.
- تفضلي.
- هيا نجلس في الكافيتريا.

جلسا أمام دهشة حامد، الذي ترك عمله وظل يتابعهما، ثم أسرعت قدرية إلى حجرة عبد المنعم لتبحث عنه، وجدته يباشر عمال الحديقة، حكت له عما حدث، ضحك وسار ناحية الكافيتريا، رآهما معا، ابتسم وعاد.

قالت رسمية:

- زوجتك غاضبة لأنك تقابل مديحة خارج المستشفى.

لم يحبها.

- علاقتك بها قد تدمرك، وتقضي على حياة زوجتك، هذا غير أهل مديحة " الجعافرة" وأبوها إن أخفوا عليه اليوم، فحتما سيعلم غدا.

- وماذا تريدين؟

- أخاف عليك.

قام غاضبا، ثم سار إلى خارج المستشفى. إلى أين يذهب، حالة عواطف ساءت بسببه، ولا يستطيع أن ينال مديحة، وإذا وصل الخبر لوالدها وأهلها، وحدث ما يقوله عبد المنعم من إحاطة المستشفى بعصيهم وسكاكينهم.

ركب الترام، جلس في مكان خالٍ، أراد أن يبقى – هكذا – إلى آخر وردية الترام. لكنه لم يستطع الاستمرار، هبط منها وذهب إلى بيته، فتح الباب، ودار في الشقة وحده، لن يقابل مديحة مرة أخرى، فقد تموت عواطف بسببه، وقد يقتل الجعافرة مديحة، حتى رسمية لن يخضع لها مهما فعلت.

نام بعد أن رمى ملابسه في كل جزء من الشقة، كان يخلع الحذاء ويسير شاردا، ولا يحس إلا والبنطلون معلق بين ساقيه.

استيقظ عند المغرب، ارتدى ملابسه على عجل، وذهب إلى المستشفى، أسرع إلى حجرة عواطف، دخل دون أن تراه الممرضة، كانت عواطف تتجه للناحية الأخرى. أحست بدخوله، فاعتدلت، ظنها ستصرخ كما فعلت في الصباح، لكنها ابتسمت قائلة:

- تعال.

أفسحت له مكانا بجوارها على السرير، انحنى وقبلها، ابتسمت:

- إنني غير غاضبة منك، فأنت معذور، حالتي السيئة منعتني من أن أعطيك حقك كزوج.

قبل يدها:

- لا تتحدثي في هذا ثانية.

- هذه حقيقة وأنا معترفة بها.

- إنني لا أريد سواك وابني.

فوجئت الممرضة به، وهو يجلس هكذا، كانت مستندة بنصفها الأعلى على الوسادة المعلقة، تتابعه في ابتسام.

نقلت الممرضات ما رأين لرسمية التي بات معروفا مدى تعلقها به، قالت:

- ليس مهما، المهم أن يبتعد عن مديحة.

***

في الصباح كانت عواطف هادئة، تبتسم وتتحدث مع كل من يقابلها، طلبت من رئيس القسم أن يسمح لها بالخروج، قال لها مشيرا لما حدث بالأمس، بينها وبين زوجها:

- أخاف أن تتأثري بشيء يضر بصحتك.

قالت مبتسمة:

- اطمئن، لن يحدث ضرر.

وعندما حاولت زميلة لها أن تنصحها بعدم الاهتمام بأفعال زوجها لأن لو حدث لها مكروه لن ينفعها أحد، ولا حتى زوجها، فقالت:

- تأكد لي أن ما قيل عن علاقته بمديحة، مجرد إشاعة أطلقها من يريدون الإيقاع بيننا.

دهشت زميلتها من تغيرها المفاجئ.

جاء عادل – شقيقها – بسيارته، حمل أمتعتها، فاستندت عليه وسارت نحو العربة.

وكان فوزي بك يسير بجوارها على مهل، مبتسما، لم تحك لأبيها ولا لأخيها عما حدث، بل عاملت خليل أمامهما بود شديد.

***

لم تتأثر مديحة بما حدث، خاصة أن أباها للآن لا يعلم.

اقتربت من مكتب خليل وتمتمت، لكنه تحدث مع قدرية، عادت مديحة لمكتبها خائبة.

قدرية منذ أن علمت بما حدث وهي غاضبة وثائرة، صرخت في مديحة فور علمها:

- لم أكن أظن أن أخلاقك هكذا.

- لماذا يا قدرية؟!

- كنت معك قبل زواجه، إنما بعد أن تزوج، فلا.

ثم امتنعت عن محادثتهان حتى الإفطار تتناوله وحدها الآن. لقد أصبح جو الحجرة كئيبا، ومديحة لا تستطيع الاستغناء عنه، قالت وقدرية مازالت في الحجرة:

- أستاذ خليل، أنا لم أفعل شيئا يغضبك مني.

نظر إلى قدرية المنشغلة بالعمل:

- أنا لست غاضبا منك، إنما غاضب من نفسي، أحس أن كل ما أفعله يضر بالآخرين، يضرك ويضر عواطف.

نظرت قدرية إليهما في ضيق، ثم زفرت، فعادت مديحة إلى مكتبها.

(10)

عادت عواطف إلى عملها، اختار المدير لها حجرة بالدور الأرضي، وطلب من الممرضات أن يترلن إليها، وأن تشرف مساعدتها على عملهن في السكن.

وعاد خليل إلى محادثة مديحة بلا خوف، لكنه لم يقابلها خارج المستشفى مرة أخرى.

بعد عدة شهور، انفرد مدير المستشفى بعواطف في حجرته وهي تعرض عليه بعض الأوراق، قال لها في ود شديد:

- أنت زميلة قديمة، وحياتك غالية علينا، لهذا أريد أن أحدثك بصراحة، يجب أن تحترسي من معاملاتك الحميمية مع زوجك، خاصة إنه – لا تؤاخذيني – كثور.

ارتبكت، وأحست بالحياء:

- لكن.....

- الظاهر إن زوجك يتمادى في هذا الموضوع، وأنت تعرفين حالتك.

خرجت من الحجرة حزينة، خلعت رداءها الأبيض، ارتدت ملابس الخروج وذهبت إلى البيت، هكذا دون استئذان.

زوجها كالثور حقا، يحتاج لزوجة قوية مثله. بكت، ظنت إنها ستكون ندا له بعد الولادة ــ فإذ بحالتها تسوء ويحول المرض بينها وبينه.

لفد أحسن معاملتها بعد معرفة مرضها وبعد أن علمت بحكايته مع البنت مديحة.

استلقت على ظهرها، وأغمضت عينيها، وأخذت تسرح. عندما عاد خليل، عاملته وكأن شيئا لم يحدث، قال لها:

- بحثوا عنك في المستشفى، ما الذي جعلك تخرجين هكذا؟!

- أحسست بالتعب، فحضرت للبيت.

- أطلب لك الطبيب؟

ابتسمت قائلة:

- لا، إنني في أفضل حال الآن.

أعدت الغداء، وتابعته باهتمام:

- ستخرج اليوم أيضا؟

- نعم.

صار حديثه معها لينا، كانت تظنه يذهب لمقابلة رسمية، فإذ به يقابل مديحة، أو قد يكون على علاقة بالاثنين معا.

خرج بعد الغداء ككل يوم، ركب الترام كعادته.

اتصلت عواطف بالمستشفى، سألت عن عبد المنعم الذي يسهر – أحيانا – ليشرف على العمال، قالت:

- عبد المنعم، أريدك في البيت حالا.

جاءها قلقا:

- أحدث شيء من خليل أغضبك؟!
- لا.
- أرسلت إليك لاعقد معك اتفاقا جديدا.
- تحت أمرك.
- وتعرف إنني أدفع لك أتعابك وأكثر.
- كلك كرم.
- أريدك أن تؤثر على خليل، ليقيم علاقة مع رسمية.

ضحك عبد المنعم:

- تمزحين، لا شك.

صرخت فيه:

- إنني جادة فيما أقول.
- كيف تطلبين مثل هذا؟!
- أطلبه، لكي أحافظ على زوجي، لا اريده أن يتركني.

بكت.

- كل أملي أن يبقى معي حتى يكبر ابني.
- وما شأن رسمية بذلك؟!

- رسمية تريده وهو يقاومها.

- أعرف هذا.

- هي ستعوضه عن الذي لا أستطيع أن أعطيه له، وبذلك سينشغل عن مديحة.

جلس عبد المنعم، ظن أن المرأة جنت، ما الذي تقوله، تريد أن تساعد زوجها لاقامة علاقة مع امرأة أخرى غيرها؟!

- لو ظل هكذا، سيتزوج مديحة، رسمية لن تتزوجه أبدا، وهذا ما أريده

وقف حزينا، تلك أسوأ صفقة يعقدها في حياته.

أخرجت من سترها مبلغا من المال وقدمته إليه:

- خده.

- لا، لا، لا أريد مالا.

كان جادا هذه المرة، لكنها أصرت على أن يأخذه.

***

مرت السنوات، انتقلت رسمية من المستشفى، ومازال زوجها سمير عبد الغفار في السعودية، يأتيها عدة أيام خلال العام، وتصل أخبارها من الممرضات زميلاتها عن علاقاتها المتكررة.

وحصل عبد المنعم على مبالغ كبيرة من عواطف على أساس أن يساعد زوجها على إقامة علاقة بينه وبين رسمية، لكن ذلك لم يحدث قط. وتزوجت مديحة، ومازالت تعمل في نفس المكتب مع خليل الذي يقضي وقته

بعد الظهر في ركوب الترام، يأخذ ابنه أشرف الذي بلغ الخامسة معه، يشتري له الحلوى ويحدثه مشيرا للمبات النيون التي تتراقص أمامهما.

وعواطف كما هي، تعاني المرض، تعمل أحيانا، أو يأمر الطبيب بحجزها في المستشفى لعدة أيام، لكنها تعود بعد ذلك إلى البيت.

الإسكندرية

28 يونيه 1989